رسالة
للّهخطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف للّه

للسان الدين ابن الخطيب
دراسة تحليلية أدبية

دكتورة

وفاء مصطفى مصطفى أبو السعود

الأستاذ المساعد بقسم الأدب والنقد بالكلية

بسم الله الرحمن الرحيم

مُقَدِّمَة

يُعد لسان الدين ابن الخطيب من أبرز أعلام الأدب الأندلسي ورموزه ، وهو من الشخصيات الموسوعية التي تظهر بحسبانها علامات فارقة في تاريخ الأمم والشعوب ، وكان من مفاخر الأندلسيين ومناقبهم ، ومواهبه وملكاته الأدبية والعلمية من التنوع والتعمق بمكان ، ومن أجله وضع المقري سفره الضخم " نفح الطيب .." وكان مقصده في الأساس أن يخصصه لبيان ميزات لسان الدين وبراعاته ، فلما تجمعت لديه ثروة أدبية واسعة عن الأندلس في ذلك العهد عمم الموضوع ، وجعل عنوان كتابه

لله نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب
وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب لله !!.

ويجمع الدارسون لشخصية لسان الدين ونتاجه الفكري والأدبي أنه كان – فضلاً عن دوره البارز في صناعة التاريخ والسياسة لمملكتي غرناطة وفاس – موسوعياً في فكره وثقافته وتحصيله، بالمقدار الذى تبوأ به مكان الصدارة فى سياق تاريخ العرب الإسلامي والأندلسي . (١)

فقد كان (يمثل بعبقريته، وقوة نفسه، وأصالة تفكيره، وروعة بيانه، وجزالة شعره أعظم ما تمخضت عنه الأندلس الكبرى). (٢)

وما من ريب أيضاً فى أنه قد ترك – على الرغم من الأعباء الرسمية والسياسية التى تولاها فى مملكة غرناطة خلال القرن الثامن الهجري – تراثاً فكرياً ضخماً أربى به – حسب روايات مترجميه – عن الستين مؤلفاً(٣) فى متعدد المعارف والعلوم، وهى التى قدمته لأن يكون موضوع الدراسات والأبحاث فى العالمين العربى والغربى، فدُرِس – كما هو معروف – فى آثار الباحثين مفكراً وسياسياً وطبيباً وصوفياً وفيلسوفاً وجغرافياً ورحالة .

---

(١) تاريخ الأدب العربي عمر فروخ ٥٠٦/٦ ، ٥٠٧ .
(٢) الإحاطة فى أخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، ت محمد عبدالله عنان ١٨/١ .
(٣) نفح الطيب للمقري ٣٠٣/٩ .

وتناولته أقلام الكتاب أديباً وشاعراً وزجالاً ووشاحاً . ودُرس مؤرخاً بارزاً من أعلام الكتابة التاريخية في القرن الثامن الهجري كما دُرس فى دراسات وبحوث معرفية عامة وكثيرة لدى القدماء والمحدثين على السواء

وبعيدا عما تداولته الأقلام عن تراث لسان الدين الفكري والأدبي وميادينها الرحبة أخصص دراستي المتواضعة هذه لجزئية صغيرة الحجم من إبداعاته ولكنها عميقة المغزى والدلالة وهي رسالته التي عنون لها بعنوان مسجوع على عادة غالبية أهل زمانه وهو : " خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف " وهي واحدة من عدة رسائل له في هذا الباب (أدب الرحلات) وهي تبرز إلى حد كبير طابع وصف الرحلات في تراثه الأدبي ، وهو لون طريف يعد ابن الخطيب واحدا من أبرز رواده ، وعلى الأخص في الأدب العربي بالأندلس . وسأتناول هذه الرسالة بالبحث والتحليل الأدبي موزعة على تمهيد ومبحثين .

في التمهيد أعرف بابن الخطيب وألمح إلى أدب الرحلات الذي تنتمي إليه رسالة خطرة الطيف .

المبحث الأول : رسالة خطرة الطيف . عرض وتوصيف ، وفيه أستعرض مسارات الرحلة وسياقاتها ، وما سجله لسان الدين من مرائي وما أبداه حيال مشاهداته من خطرات وإحساسات .

المبحث الثاني : الخواص الفنية لأسلوب ابن الخطيب في رسالته ، والأدوات الفنية التي عبر من خلالها عن مشاهداته وانطباعاته ، وما يندرج في ثنايا ذلك مما وظفه كاتبنا من وسائل التأثير والتشويق ، وما أضفاه على ما سطرته براعته من ألوان التصوير وجماليات الأسلوب .

الخاتمة : وأبرز من خلالها أهم ما أفرزته الدراسة من ظواهر وما توحي به فيما يتصل بريادة لسان الدين في ميدان التناول الأدبي الفذ لذلك اللون من أدب الرحلة في تراثنا العربي .

والله من وراء القصد وعليه المعتمد

تمهيد

تعريف بابن الخطيب (٧١٣ – ٧٧٦ هـ – ١٣١٣ – ١٣٧٤م)

هو ذو الوزارتين محمد بن عبد الله بن سعيد بن عبد الله بن سعيد بن على بن أحمد السلمانى نسبة إلى سلمان، وهو حي من مراد من عرب اليمن القحطانية، دخلوا الأندلس عقب الفتح ، منهم جماعة من الشام ، ومنهم سلف لسان الدين، وكان هذا اللقب يغلب عليه ولاسيما في المغرب حيث كان يعرف (بابن الخطيب السلمانى) [١] .

ولد لسان الدين بن الخطيب فى مدينة لوشة فى الخامس والعشرين من شهر رجب سنة ٧١٣هـ (١٦ نوفمبر ٣١٣م)[٢]، ونشأ فى بيت شرف وعلم وسيادة ونفوذ، وكان يعرف ببيت الوزير، حتى نشأ سعيد الجد الأعلى للسان الدين، وكان من أهل العلم والدين، بلوشة، وهو أول من استوطنها منهم، وكان خطيباً بها، فعرف هذا البيت منذ ذلك اليوم ببيت الخطيب، وأورث هذا اللقب لبنيه، فعرفوا ببنى الخطيب من ذلك الحين[٣] ، ثم انتقلت الأسرة إلى غرناطة فنشأ بها لسان الدين وتلقى بها دراسته الأولى [٤]

درس لسان الدين العربية والشريعة والأدب على جماعة من أقطاب العصر أمثال أبى عبد الله بن الفخار الألبيرى شيخ النحويين فى زمانه، والإمام الرحال شمس الدين أبو عبد الله محمد بن جابر الوادى آشى، وأبى القاسم محمد بن على الحسينى، وأبى عبد الله بن مرزوق فقيه المغرب الكبير، والقاضى أبى البركات بن الحاج البلفيقى نادرة الزمان، وشاعر ذلك الأوان، وأبى القاسم محمد بن على الحسينى السبتى، وأخذ الأدب والشعر عن الوزير أبى عبد الله بن الحكيم اللخمي ، وأبى الحسن على القيجاطي وكان أديباً لوذعياً فكهاً حلواً وهو أول أستاذ قرأ ابن الخطيب عليه القرآن والعربية والأدب إثر قراءة المكتب، وعن ذى الوزارتين

---

(١) الإحاطة فى أخبار غرناطة ٤/ ٤٣٩، وكذا نفح الطيب ٥/ ٧.

(٢) الإعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام ٣٥٢/٣ . والدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى ٤/ ٨٨ .

(٣) الأدب الأندلسى التطور والتجديد محمد عبد المنعم خفاجى صـ٦٣٤.

(٤) تاريخ بن خلدون ٣٣٢/٧ .

الرئيس أبى الحسن بن الجياب إمام النثر والنظم فى عصره وقد وصفه ابن الخطيب فى الإحاطة بقوله : « وهو شيخنا ورئيسنا العلامة البليغ»[١].

تأثر ابن الخطيب منذ نعومة أظافره بهذا الأفق السلطاني، الذى عاش والده فى كنفه، وتطلع إلى غزوه والعمل فى ظله فلما توفى أبوه، سنحت الفرصة المنشودة، ودُعي للخدمة مكان أبيه، وكان يومئذ شابا فى نحو الثامنة والعشرين من عمره، وتولى أمانة السر لأستاذه الرئيس أبى الحسن بن الجياب وزير السلطان أبى الحجاج يوسف وكاتبه الأثير.

وتلقى ابن الخطيب فى ديوان الإنشاء على يد أساتذه الكاتب الشاعر المبدع ابن الجياب، أرفع أساليب النظم والنثر فى هذا العصر، وظهرت براعته فى تدبيج الرسائل السلطانية ، وتنتمي رسالة خطرة الطيف التي هي موضوع بحثي هذا إلى تلك الحقبة المبكرة من حياة لسان الدين ، وعندما توفى ابن الجياب، خلفه لسان الدين فى رياسة الكتاب، ورياسة ديوان الإنشاء، ومنحه السلطان أبو الحجاج يوسف رتبة الوزارة وألقابها. [٢]

وهنا تألق نجم لسان الدين ابن الخطيب وعظمت منزلته وأغدق السلطان عليه عطفه، وآثره بثقته، وجعله كاتب سره ولسانه فى المكاتبات السلطانية، وصدرت منها بقلم ابن الخطيب يومئذ طائفة من أبدع الرسائل الملوكية، التى ينعتها ابن خلدون (بالغرائب) في قوله : « صدرت عنه غرائب من الترسل».[٣]

اتصلت خدمة ابن الخطيب في البلاط السلطاني بعد وفاة أبي الحجاج يوسف في عهد ولده أبي عبد الله الغني بالله ، وأظهر ابن الخطيب في خدمة السلطان الجديد والسفارة بينه وبين والي المغرب ونجاحه في الحصول على دعم قوي له فاستأثر ابن الخطيب بثقة سلطانه محمد الغنى بالله، كما استأثر بثقة أبيه من قبل ، وأسبغ عليه الأخير لقب (ذي الوزارتين) لجمعه بين الكتابة والوزارة، أو لجمعه بين الكتابة والقيادة على قول آخر.

(١) نفح الطيب ٥ / ٤٣٤ .
(٢) تاريخ ابن خلدون ٧/ ٣٣٢ .
(٣) المرجع والصفحة .

ومع ما ناله ابن الخطيب من حظوة لدى سلطان غرناطة أبي الحجاج يوسف وابنه محمد الغني بالله من بعده إلا أن هذه الحظوة انقلبت نقمة عليه عندما تعرض السلطان لمحنة الانقلاب عليه فكان ابن الخطيب موضع انتقام وتنكيل ، وكما هو شأن الصراعات في الأندلس وتدخلات حكام المغرب وسلاطينه في تأييد فريق ومناصرته على غريمه تقلبت حياة ابن الخطيب الذي كان حساده والناقمون عليه بوزن نجاحه ونبوغه وتفوقه ، فكانت نهاية حياته نهاية مأساوية في تلمسان سنة ٧٧٦هـ .

۞۞۞

نبذة عن أدب الرحلات عند العرب:

عرف أدبنا العربي وبالأخص لدى أهل المغرب والأندلس أدب الرحلة ، وكانت رحلاتهم في الأعم الأغلب تتجه صوب المشرق الإسلامي إلى بلاد الحجاز حينا وإلى الشام والعراق حينا آخر مرورا بمصر ، ومن أشهرها كما هو معروف (رحلة ابن جبير) التي دونها في كتاب بهذا الاسم وكان ثمرة لرحلات ثلاث قام بها، وقد جاء هذا الكتاب حافلا بالمشاهد والتجارب التى اكتسبها أثناء تجواله فى عجائب البلدان والمدن، ورؤيته لغرائب المشاهد، واطلاعه على الشؤون والأحوال السياسية والاجتماعية والأخلاقية التى كانت سائدة فى تلك الحقبة من الزمن.(١)

ثم تلاه فيما بعد ذلك بنحو القرنين ابن بطوطة ليتميز هو الآخر بإضافات تتمثل في احتفاله بالخرافات والأساطير والغرائب وكل ما يثير.

ولم يترك ابن بطوطة بلداً نزل بها إلا وتحدث عن أهلها وسلطانها وعلمائها وقضاتها، وبذلك كانت رحلته معرضاً كبيراً لحياة الأمم والأقاليم التى نزل بها من الوجهتين السياسية والاجتماعية. وكانت فيه نزعة دينية قوية. (٢)

وكان صادقا فى أغلب أوصافه حتى أن المستشرق الكبير (دوزي) أطلق عليه (الرحالة الأمين). (٣)

وفى القرن الثالث عشر بدأ طابع الارتحال فى طلب العلم يطغى على نمط كتب أدب الرحلات العربى ويظهر ذلك بوضوح فى رحلات أبى محمد بن على العبدرى فى القرن السابع الهجرى، وابن رشد السبتى المتوفى سنة ٧١١هـ / ١٣١٢م.

---

(١) أدب الرحلات رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف بـ (رحلة ابن جبير) لأبى الحسن محمد بن أحمد بن جبير – طبعة جديدة منقحة بأشراف لجنة – تحقيق التراث منشورات دار مكتبة الهلال بيروت – لبنان ١٩٨١م – صـ٥، وكذا الجغرافيون العرب مصطفى الشهاب صـ٧٢.

(٢) الرحلات شوقى ضيف صـ٩٨.

(٣) رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار صـ٤، وكذا الجغرافيون العرب مصطفى الشهابى صـ٨٦.

ثم جاء البلوى فى القرن الثامن الهجرى (الرابع عشر الميلادى) وهو عصر لسان الدين بن الخطيب الذى قام برحلته (خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف) ويمكن أن ندخل فى هذا الباب ما كتبه ابن خلدون باسم (التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً) فقد ولد بتونس ورحل إلى غرناطة فى الأندلس. واتصل وداخل ملوك المغرب ومصر. وهو يعطينا فى تعريفه بنفسه وبرحلته كثيراً من المعلومات عن عصره والبلدان التى زارها فى الأندلس وعلى طوال الشاطئ الإفريقى إلى الشام. كما يعطينا كثيراً من المعلومات السياسية والتاريخية. وما زالت كتابة الرحلات مستمرة بعد ابن خلدون يكتبها المغاربة والمشارقة. (١)

والرحلة – فى داخل الأندلس وخارجها – كانت مصدر أدب غزير طوال القرون، وكان الشوق إلى الرحلة مثيراً لفن من الترسل طريف.

وليس من القصد أن نتحدث عن مدى عناية المسلمين فى المشرق والمغرب بهذا الفن، أو أن نسرد سرداً مفصلاً أسماء الرحلات على مختلف أنواعها والرحالين، أو أن نذكر المواضع التى حلوا بها ووصفوها، ولكن اكتفينا أن نشير فى هذا التمهيد إلى طائفة ممن انتشرت رحلاتهم، وتداولها الناس وكان لها تأثيرها على عصر لسان الدين بن الخطيب.

ومما لا شك فيه أن بواعث الرحلات فى هذا التراث العربى الإسلامى لم تكن دائماً محددة أو محصورة الوجهة والغاية ؛ فلعل منها ما اتجه وجهة علمية إما للتلقى والتحصيل ؛ أو اللقاء بأعلام البلدان الأخرى ومفاتشتهم وأخذ الإجازة منهم والمناقلة عنهم، وأخذ بعضها الطابع التعبدى، ومنها ما اتجه إلى القيام بمهام رسمية فى صوالح الدول والحكومات وهى ما يعرف بالرحلة التكليفية كرحلة لسان الدين بن الخطيب (خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف)، ومنها ما ينحو نحو الوجهة الحرة سواء أكان مصروفاً للتجارة تصديراً وتوريداً، أم للسياحة والاستجمام والمتعة، وهناك بواعث متعددة للرحلة ليس من مقاصدنا هنا استقصاؤُها أو الوقوف عندها .

ومما لا شك فيه أن هذا التنوع والاختلاف فى الجوانب قد أعطى فن الرحلة فى الآداب العالمية بصفة عامة، وفن الرحلة فى الأدب العربى بصفة خاصة قدراً

(١) الجغرافيون العرب مصطفى الشهابى صـ١٠٢.

هائلاً من الحيوية والثراء، ويظهر ذلك بوضوح فى الرحلات ذات الطابع الفنى التى دبجتها أقلام المبدعين، وذوى الإحساس المرهف والتصوير الرائع، وهو ما تتفاوت فيه حظوظ الكتاب فى هذا اللون، فمن الرحلات ما يجنح بها أصحابها نحو طوابع التقريرية والسردية الشفافة والتبليغ، ومنها ما يمتطى أسلوبها متون البلاغة والخيال المجنح فيحلق فى الفضاء الفنى ليرسم مجالى الطبيعة وما فيها من لوحات ناعمة متناغمة، أو مشاهد ذات ألوان وظلال وحقائق ودقائق وخطرات يستعصى على غيره قلم الرحالة الأديب أن يتحف بها.

ولسان الدين بن الخطيب لم تكن له رحلة علمية خارج بلاده الأندلس كما لم تكن له – باستثناء رحلاته إلى البلاد المغربية[١] – رحلة أخرى، موجهة لغرض من الأغراض المعهودة فى فن الرحلة، ولكنه كان من أمانيه فى مرحلة الزهادة التى مر بها فى أخريات حياته أن يقوم برحلة إلى المشرق إلى أرض الحجاز ليحج إلى بيت الله الحرام، ولكن هذه الأمنية لم يقدر له القيام بها.

وقد رجح الدكتور عبد الهادى التازى أن تكون للسان الدين بن الخطيب رحلات سفارية أخرى إلى قشتالة لمقابلة ملوكها ورجال دولتها فى مهام دبلوماسية كان يقتضيها منصبه[٢]، ولكنه لم يترك، كصديقه عبد الرحمن بن خلدون الذى سافر فى مهمة سياسية إلى أشبيلية أثراً وصفياً يمكن أن يستدل به على مهمته، أو بعبارة أدق على تصويره الفنى لما رآه من معالم وشخصيات.

ومن هنا نستطيع أن نقول : إن نصوص الرحلة فى آثاره محدودة وقليلة، محدودة بمحيطها المكانى حيث إنها لم تتعد الغرب الإسلامى تلمسان فى الجزائر، ومدن فاس ومكناس ومراكش وسلا في المغرب، وبعض الأقاليم والمدن المختلفة فى بلاد الأندلس، كما أنها محدودة فى كمها أيضاً حيث لم يصل بين أيدينا مما كتبه عن تلك الرحلات إلا بعضه، فقد ضاع الجزء الأول والرابع من

(١) مجلة كلية الآداب جامعة الإسكندرية – المجلد الثانى عشر ١٩٥٨م – النزعات الاقتصادية فى حياة لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ١٤٥.

(٢) مجلة كلية الآداب بتطوان – جامعة سيدى محمد بن عبدالله – عدد خاص بندوة ابن الخطيب – السنة الثانية – العدد الثانى – مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء ١٤٠٨هـ – ١٩٨٧م.

كتابه (نفاضة الجراب في علالة الاغتراب) المشتمل على هذه الرحلة المغربية[1]، فلم نعثر على شيء مما كتبه عن زيارته وإقامته فى المغرب، كما أننا لم نعثر على ما حرره فى الوصف لبعض مدائن المغرب، وابتداء النفاضة بالحديث في جزئها الثاني عن جبل هنتاتة ومراكش دال على هذا الانقطاع والضياع.

وعلى الرغم مما يلاحظ من هذه المحدودية المكانية والكمية، لقلة ما قام به لسان الدين بن الخطيب من رحلاته، ولضياع كثير مما كتبه عما نهض به منها، فإن هذا القدر الموجود بين أيدينا يدلنا على طريقة كتابته فى المفقود من جهة ؛ كما أنه يدلنا من جهة أخرى على أن كاتبه سلك فى تعبيره مسلك الأشكال الفنية الرفيعة في أدب الرحلة.

(١) نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب لسان الدين بن الخطيب – تحقيق : أحمد مختار العبادى – ج٢ صـ ٨٥، ٨٦، وكذا نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب لسان الدين بن الخطيب – تحقيق : السعدية فاغية – المغرب – المطبعة الجديدة ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م – ج٣ صـ٧.

المبحث الأول
رسالة (خطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف)
عرض وتوصيف

استهل لسان الدين بن الخطيب وصفه لرحلة خطرة الطيف بافتتاحية بليغة مبينا هدف الرحلة ووجهتها ، واصفا تفصيلاتها ومراحلها وصفا دقيقا فقال : "

نحمد الله حمد معترف بحقه، ونشكره على عوائد فضله ورفقه، الذي جعل لنا الأرض ذلولا نمشى في مناكبها ونأكل من رزقه ». (١)

ثم أتبع ذلك بالصلاة والسلام على رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ممهدا للحديث عن الرحلة بقوله: « لما وقع العزم الذي وفقه الله على مصالح هذه الجزيرة، والقصد المعرب عن كريم العقيدة وفضل السريرة، على تفقد بلادها وأقطارها، وتمهيد أوطانها، وتيسير أوطارها، رأى من قلده الله أمورها، ووكل إلى حمايته ثغورها، مولانا وعصمة ديننا ودنيانا أمير المسلمين وظل الله على العالمين أبو الحجاج بن مولانا أمير المسلمين وكبير الملوك العادلين الصالحين أبى الوليد إسماعيل بن مولانا الهمام الأعلى، الذى تروى مفاخره وتتلى، أبى سعيد حفظ الله منه على الأيام بحر الندى، وبدر المنتدى، وسابق الفخر البعيد المدى، وشمله برواق عصمته كلما راح واغتدى، أن يباشرها بنفسه، ويجعل آفاقها مطالع شمسه، نظراً للإسلام وقياماً بحقه، وعملا على ما يقربه ممن استخلفه على خلقه ». (٢)

وقد حدد بداية الرحلة فذكر أن الركب السلطاني خرج من العاصمة غرناطة فى يوم الأحد ١٧ محرم عام ٧٤٨ هـ .

وهذه الرحلة التي سجلها ابن الخطيب بأسلوبه المشوق ذاكرا تفصيلاتها ودقائقها تدخل ضمن ما يعرف بالرحلات التكليفية ، فهو فيها يرافق السلطان ويصف بدقة ما يراه ضروريا وبالأخص ما يغطي مشاهد الرحلة وطرائف مرائيها وأحداثها ، وما قوبل به الركب السلطاني من حفاوة وتكريم ، وما وقع لهم من لقاءات ، وما حضروه من محافل ... إلخ ومن ثم حرص ابن الخطيب على

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في بلاد المغرب والأندلس / ٢٥.
(٢) المصدر نفسه / ٢٦.

تتبع سير هذا الركب، وذكر مسير السلطان وحلوله ووصف موكبه الحافل تتقدمه الألوية الحمراء التي كانت شعار دولة بنى الأحمر، ووصف مظاهر الجلال التي كانت تحوط الركب السلطاني، والاستقبالات الحاشدة التي كان يقيمها الولاة وجمهور الناس ؛ احتفاء بمقدمه أو وداعه.

وقد أوضح لسان الدين في بداية رسالته أن غرض الرحلة هو تفقد أحوال السلطنة ورعاية ديار الإسلام، وقيام السلطان بواجبه وهذا يجعل وجهة الرحلة وجهة جهادية، ونراه يؤكد أن هذه الرحلة قد تمت في فصل مطير جادت فيه السماء بمائها، وامتلأت الأرض خلاله بالغدران والمزالق مما سبب للركب السلطاني متاعب ومصاعب لا يستهان بها ، وهو ما ظل ابن الخطيب يؤكده طوال الرحلة ومما قاله في هذا السياق : « خرجنا وصفحة الأفق بالغيم منتقبة، وأدمع السحب لوداعنا منسكبة نتبع من الراية الحمراء دليلا هادياً، ونغترف من وجهتنا الجهادية سناء بادياً، ونثق بوعد الله سبحانه في قوله ولا يقطعون وادياً. وسلكنا جادة الماء المفروش نسرح اللحاظ بين تلك العروش، ونبتذل ما نحلته عروس الربيع من تلك الفروش ». (١)

ولعل فى قول ابن الخطيب : « نتبع من الراية الحمراء دليلا هادياً » إشارة إلى أن ملوك بنى الأحمر قد اتخذوا من اللون الأحمر شعاراً لهم فى لون قصورهم بالحمراء، وأعلامهم وخيامهم، بل وفى لون الورق الذي يكتبون عليه رسائلهم السلطانية. (٢)

لقد خرج لسان الدين برفقة السلطان أبي الحجاج في هذه الرحلة بحسابه واحدا من كتاب ديوان الإنشاء يحدوه الأمل في تحقيق ما يكلف به من وصف هذه الرحلة ، وتسجيل وقائعها على الرغم من تعلقه بموطنه غرناطة وتفضيله البقاء بها ، ومن ثم ودعها عند الخروج بعبارات تدل على الإعزاز والإكبار ؛ إذ

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب /٢٧، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لسان الدين ابن الخطيب ٢ /٢٤٩.

(٢) مجلة عالم الفكر – المجلد ١٦ – العدد ٢ – ١٩٨٥م لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخية أحمد مختار العبادي / ٣٢، وكذا سلطة المثقف بين الاقتراب والاغتراب قراءة فى سيرة لسان الدين بن الخطيب وتجربته السياسية محمد فاتح زغل /٣٩.

تحتل من نفسه موقعا ، فهو عندما يغادرها فكأنما يغادر قطعة من نفسه على نحو ما قال : «ومن له بالحضرة حرسها الله شوق حثيث، وهوى قديم وحديث، يكثر الالتفات ، ويتذكر لما فات ويبوح بشجنه، وينشد مشيراً إلى سكنه ». (١)

يـوم أزمعـتُ عنـك طـيَّ البعـاد وعــدتنى عــن الــوداع العــوادى
قال صـحبى وقـد أطلـت التفاتي أيّ شــيء تركــت قلــت فــؤادى

ثم عاد بعد ذلك فصور استعار هذا الحنين بين جوانحه، وما كان يعانيه من الجوى وشدة الحب والهيام بالديار حيث قال فى هذا السياق : « وربما غلبته لواعج أشواقه، وشبت زافراته عن أطواقه، فعبر عن وجده، وخاطب الحضرة معرباً عن حسن عهده ». (٢)

فهل كان ابن الخطيب يعبر من خلال هذا الاتجاه عن حب حقيقى لوطنه غرناطة ؟ أو إنه وهو الشاب الذي لم يتجاوز الخامسة والثلاثين من عمره كان يفصح من خلال هذا الحنين عن تجربة عاطفية كان يكتمها في نفسه، ويرمز لها بالحضرة ؟ وسواء هذا أو ذاك فإن ابن الخطيب عبر عن عاطفته بجلاء قبل الشروع فى الحديث عن الرحلة الرسمية التكلفية التفقدية التي تعايش معها وألم بالكثير من أحداثها ومجرياتها فى عبارات ظهرت فى الغالب موجزة مكثفة لم تجنح إلى الحديث المفصل المعدود من طوابع أساليب الرحلات.

مما لاشك فيه أن ابن الخطيب استطاع أن يتتبع حل الركب السلطانى وترحاله خلال هذه الرحلة التى دامت مدة عشرين يوماً(٣) تتبعاً يوشك أن يكون تاماً لولا الإيجاز، فقد نزل هذا الركب كما يدل تصويره فى الرحلة فى وادى (فردس) ، ثم تواصل الرحلة سيرها إلى (وادى آش)، ثم تابع ذكر البلدان التى حل بها أبو الحجاج وحاشيته فذكر حصن (الببول) و(بسطة)، و(قنالش)، وحصن (شيرون)، و(المنصورة)، و(برشانة)، و(قتورية)، و(البلاد الشرقية)،

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٢٧.
(٢) المصدر نفسه صـ٢٧، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٤٩.
(٣) ذكر الدكتور حسين مؤنس فى كتابه (تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس) صـ٥٧٣ أن الرحلة دامت أسبوعين قطع الركب فيها حوالى ٢٠٠ كيلومتر.

و(بيرة)، و (قيشر)، و (المرية)، و (عبلة)، و(لورسانه)، و (فنيانة) من الأماكن التى مر بها الركب السلطانى فى الذهاب والإياب.

ولقد عنى ابن الخطيب بوصف حركة الركب فى تلك المدن والقرى التابعة للمملكة النصرية وما أُعد لأمير المسلمين أبى الحجاج من مراسم واستقبالات.

وأغلب الظن أن ابن الخطيب كان يصور مشاهد وأحوال السلطان عن بعد، فنراه يصور مظاهر الحفاوة ومواعيد الحلول والرحيل، ولكننا نجده لا يصور لنا شيئاً من مجالس هذا السلطان وما كان يدور بينه وبين الولاة وكبار رجال حاشيته وبطانته أو يوجه به العمال والجند مما تقتضيه الرحلة التفقدية.

ولعل السبب في ذلك أن ابن الخطيب كان في تلك الآونة لا يعدو أن يكون كاتبا من كتاب الديوان ، ولم يكن ارتقى بعد إلى مرتبة رئيس ديوان الإنشاء أو الوزارة كما تم له بعد ذلك ، والمرجح أنه في رتبته التي كان عليها في تلك الأثناء لم يكن يسمح لمثله أن يحضر اجتماعات السلطان مع عماله أو ولاته على الأقاليم . والذي يعنينا هنا أن ابن الخطيب برع في الشق الأدبي التصويري من الرحلة ، ودوَّن باقتدار ، وفي أسلوب أدبي رائع كل ما وقعت عليه عيناه ، وقد كانت ريشته دقيقه وحسه الفني لماحا فلم يدع مما عاينه شيئا إلا سجله مستطردا حينا ومكتفيا بالتلميح أحينا أخرى .

ومن الواضح فى رحلة ابن الخطيب أنه عند حديثه عن بعض المدن التي مر بها الركب يوجز الحديث ، وربما اقتصر على ما لابد منه من عدم إغفال الموضع أو الإقامة السريعة ؛ وأغلب الظن أن له العذر فى ذلك بعدم إطالة الركب اللبث فيه بالمقدار الذى يؤهله ويمكنه من وصفه والحديث عنه على نحو من التفصيل.

ومن المدن التى وصفها ابن الخطيب وصفا موجزا ما ذكره عن وادى (فُرْدُسْ) إذ يقول « ... ثم استقلت بنا الحمول، وكان بوادى فردس النزول، منزل خصيب ومحل له من الحسن نصيب، ولما ابتسم ثغر الصباح، وبشرت بمقدمه نسمات الرياح، ألغينا عمل السراج إلى الإسراج، وشرعنا في السير الدائب، وصرفنا إلى وادى آش صروف الركائب ». (١)

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب /٢٨، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب ٢/ ٢٤٩.

ومن ذلك الإيجاز أيضاً قوله في بلدة غور : « وكان اللحاق بغور، من بعض تلك الثغور، أتيناها والنفوس مستبشرة، والقباب لأهلها منتظرة، فحمدنا الله على كمال العافية، وقلنا فى غرض تجنيس القافية :

ولما اجتلينا من نجوم قبابنا سنا كل خفاق الرواق بغور
زرينا على شهب السماء بشهبها متى شئت يا زهر الثواقب غوري

أظلتنا بها ليلة شاتية، والحقتنا أنواء الأرض مراثية. فلما شاب مفرق الليل وشمرت الآفاق من بزتها العباسية[١] فضول الذيل، بكرنا نغتنم أيام التشريق، وندس بأرجلنا حيات الطريق ». [٢]

وشبيه بذلك قوله فى حصن الببول : « وجزنا فى كنف اليمن والقبول بحصن الببول، حسنة الدولة اليوسفية، وإحدى اللطائف الخفية، تكفل الرفاق بمأمنها، وفضح سرية العدو فى مكمنها من أبيض كالغارة ضمن الفوز فى تلك المفازة ». [٣]

ومن ذلك الإيجاز أيضاً قوله فى قنالش كبرى بنات بسطة أى أكبر القرى التابعة لها إدارياً[٤] « وكان على طريق قنالش المسير كبرى بناتها وشبيهتها فى جداولها وجناتها، ما شئت من أدواح توشحت بالنور وتتوجت، وغدران زرع هبت عليها الصبا فتموجت، سفر بها الشقيق الأرجوانى عن خدود الغوانى فأجلنا العيون فى رياض، وتذكرنا قول القاضى عياض.

انظر إلى الزرع وخاماته يحكى وقد ماس أمام الرياح
كتيبة خضراء مهزومة شقائق النعمان فيها جراح

مثل أهلها فسلموا، ومن عدم النزول بهم تألموا ». [٥]

ومن ذلك الإيجاز أيضاً ذكره سهل فحص الأنصار، بوصول الركب إلى هذا السهل يتذكر السلطان بدايات عهد بنى الأحمر أو بنى نصر أول من أسسوا

---

(١) يقصد السواد شعار العباسيين مشاهدات لسان الدين بن الخطيب / ٣٠ .
(٢) المصدر نفسه / ٣٠، ٣١.
(٣) المصدر نفسه ص/٣١.
(٤) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس حسين مؤنس صـ٥٧٤.
(٥) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٣.

مملكة غرناطة وكان تأسيسها على يد قائد عربى أندلسى من بلدة أرجونة إحدى حصون قرطبة وهو الغالب بالله محمد بن يوسف بن نصر بن عقيل بن نصر بن قيس بن سعد بن عبادة وواضح من نسبه أنه ينتمى إلى سيد الخزرج وزعيم الأنصار بالمدينة المنورة على عهد الرسول ﷺ وصاحب سقيفة بنى ساعدة التى تمت فيها بيعة أبى بكر الصديق بالخلافة[١]، يقول ابن الخطيب : « وأتينا فحص الأنصار فتجددت له ملابس المجادة، وتذكر عهود من حل به عند الفتح الأول من السادة، لما خفقت به راية سعد بن عبادة. ولم تزل الركائب تفلي الفلاة فري الأديم، وأهلة السنابك صيرها السير كالعرجون القديم، حتى الحفتنا شجرات المصنبر بشذاها المعنبر. وراقتنا بحسن ذلك المنظر سوار مصفوفة، وأعلام خضر ملفوفة، ونخل يانعة البسوق، وعذارى كشفت حللها الخضر عن الشوق، كأنها شمرت الأذيال لتعبر الوادى، على عادة نساء البوادى، ينساب بينها الزلال المروق، ويغنى فوقها الحمام المطوق، فتهيج الجوى وتجدد عهود الهوى، صبحتنا بها أصوات تلك القمارى »[٢] وشبيه بذلك أيضاً قوله فى وادى العبران : « بقعة جديبة المرعى، معدن لكل عقرب تدب وحية تسعى، غير أن الله دفع مضرتها، وكفى ببركة الأيالة اليوسفية معرتها».[٣]

فتلك هي أهم النعوت الأدبية لبعض المدن التى نزل بها الركب السلطانى، إلا أنها مع طلاوة عباراتها وجمالية وصفها لم تعتمد الوصف المسهب المفصل وقد سبق أن عللنا السبب فى ذلك على أن ابن الخطيب فى مواضع أخرى من رحلته يحبس قلمه للوصف، ويحشد طاقته الإنشائية، ويسمح لذاتيته بالظهور الواضح فيأتى تعبيره متسما بالإسهاب والتفصيل، والذى نراه لا يقصره على مجرد الوصف الإنشائى الديوانى الرسمى ؛ بل نجد عنايته الشديدة بتسجيل المواقيت فى حل الركب السلطانى وترحاله عبر الأماكن التى يذكرها فنراه يهتم بوصف

(١) مجلة عالم الفكر – المجلد السادس – العدد الثانى – يوليو – أغسطس – سبتمبر ١٩٨٥م – صـ٣٢، وكذا لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٢، وكذا غرناطة وآثارها الفاتنة عبد الرحمن زكى صـ٣٣.

(٢) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٣، ٣٤.

(٣) المصدر نفسه صـ٤١.

مظاهر الاستقبال، والحديث عن روائع جمال المظاهر فى الطبيعة التى اكتست بها المدن الأندلسية من جبال ووهاد ووديان وأمطار، كما نراه يعنى فى مواضع أخرى بالحديث عن بعض الأشخاص وبيان أحوالهم ، وتصوير بعض من لقيهم رجلا ونساء ، وما جرى له من الأنس ببعض الأدباء والظرفاء وما رأى من العمران، والحصون والبرارى والقفار ونحو ذلك مما شهده من خلال رحلته.

ومما يجدر التنويه به في هذا السياق أن ابن الخطيب لا يسوق ذلك فى معرض تقريرى إخباري جاف ؛ ولكنه يشربه بعواطفه ومشاعره، ويمزجه بخوالجه، ويصوغه بعد ذلك فى معرض أدبى حافل بروعة الصياغة، وحسن التخييل.

نذكر من هذا الإبداع فى سياق رحلته التى جمع فيها بين التصوير الرائع والتفصيل ما قاله فى وادى آش تلك المدينة التى تقع فى شمال شرق غرناطة على قدر ستين كيلومترا منها وفوق منحدر ربوة صخرية عالية تمتد من الناحية الأخرى على ضفة وادى آش[١] وتقع هذه المدينة على نهر فردس على مسافة ٥٣ كيلومترا[٢] وقد صور ابن الخطيب كيف استقبلهم الأهالى استقبالا رائعاً بملابسهم البيضاء وهو الزى التقليدى لأهل الأندلس عموماً منذ أيام الأمويين حيث قال :

« واستقبلنا البلدة حرسها الله فى تبريز سلب الأعياد احتفالها، وغصبها حسنها وجمالها ، نادى بأهل المدينة، موعدكم يوم الزينة، فسمحت الحجال برباتها، والقلوب بحباتها، والمقاصر بحورها، والمنازل ببدورها. فرأينا تزاحم الكواكب بالمناكب وتدافع البدور بالصدور بيضاء كأسراب الحمائم، متلفعات بروضهن تلفع الأزهار بالكمائم ، حتى إذا قضى القوم من سلامهم على إمامهم فرضاً واستوفينا أعيانهم تمييزاً وعرضاً، خيمنا ببعض رباها المطلة، وسرحنا العيون فى تلك العمالة المغلة، والزروع المستغلة، فحباها الله من بلدة أنيقة

(١) دولة الإسلام في الأندلس الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال محمد عبدالله عنان ٨ /٢١٥.

(٢) معجم البلدان لياقوت الحموي ١ / ٢٣٤، وكذا الروض المعطار فى خبر الأقطار أبى عبدالله محمد بن عبد المنعم الحميرى – نشر ليفى بروفنسال ١٩٣٧م /١٩٢، ١٩٣.

الساحة رحبة المساحة، نهرها مطرد، وطائرها غرد، تبكى السحاب فيضحك نورها ويدندن النسيم فترقص حورها.

بلـد أعارتـه الحمامـة طوقهـا وكسـاه حسـن جناحـه الطـاووس
فكأنمـا الأنهـار فيـه مدامـة وكـأن سـاحات الـديار كـؤوس

ثم خلص إلى حصانة هذه المدينة ، وقوة منعتها وتأبيها على الملوك والأمراء الذين خطبوها ومنهم رجال الدولة النصرية الذين ثابت إليهم بعد شماس حيث قال

: « معقلها بادي الجهامة، تلوح عليه سمة الشهامة، نفقت سوق النفاق دهراً، وخطبتها الملوك فلم ترض إلا النفوس مهراً، طالما تعرفت وتنكرت وحجتها نعم الإيالة النصرية فأنكرت، ومسها طائف من الشيطان ثم تذكرت، فالحمد لله الذي هداها بعد أن تبت يداها، فجف من فتنتها ما نبع، وانقادت إلى الحق والحق أحق أن يتبع، وتنافس أهلها فى البر الكفيل، والقرى الجميل، فبتنا نثنى على مكارمهم الوافية، وفواضلهم الكافية ». (١)

ومن الواضح هنا أن ابن الخطيب يستدعى من مخزونه التاريخى ما يذكر به مدينة وادى آش وشدة بأس أهلها فى الحرب، كما نجده يستند على النظم القرآنى بالاقتباس فى حالي التنكر والتذكر اللذين عرفت بهما هذه المدينة الأبية الرضية ومن هذا الإبداع أيضاً فى سياق رحلته التى جمع فيها بين التصوير والتفصيل ما قاله فى مدينة (بسطة) التى وصل إليها الركب بعد المرور ببلده غور شمالا ثم إلى حصن البيول ؛ لقد استهل الحديث عنها بإيراد استفهام مؤسس على التعظيم والتهويل « بسطة حرسها الله، وما بسطه ؟ »(٢) وبسطه مدينة بالأندلس بقرب جيان، كثيرة الخيرات، بها بركة تعرف بالهوتة فيها ما بين وجه الماء إلى الأرض نحو قامة، لا يعرف لهذه البركة قعر أصلاً(٣). كما أنها كثيرة

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٢٩، ٣٠.
(٢) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣١، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٥٠.
(٣) معجم البلدان ياقوت الحموى – تحقيق : فريد عبد العزيز الجندى ج١ صـ٥٠١.

الزرع « واختصت بالزعفران، فيها منه ما يكفى أهل الملة الإسلامية بالأندلس على كثرة ما يستعملونه منه ». (١)

كما أن هذه المدينة كانت مشهورة بمنتجاتها الزراعية ولاسيما الزيتون وبمنسوجاتها الحريرية وينسب إليها الوطاء البسطى من الديباج الذى لا يعلم له نظير. (٢)

ومن الملاحظ عند وصف ابن الخطيب لهذه المدينة أننا نراه قد شرع فى مسرد سجعى متوازن فى وصفها، والتغنى بمحاسنها حيث قال : « بسطه حرسها الله ! وما بسطة ؟! محل خصيب، وبلدة لها من اسمها نصيب، بحر الطعام، وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام. ومعدن ما زين للناس حبه من الحرث والأنعام.

يا لها من عقيلة، صفحتها صقيلة، وخريدة، محاسنها فريدة، وعشيقة نزعاتها رشيقة، لبست حلى الديباج الموشى، مفضضة بلجين الضحى، مذهبة بنضار العشا، وسفرت عن المنظر البهى، وتبسمت عن الشنب الشهى وتباهت بحصونها مباهاة الشجرة الشماء بغصونها ». (٣)

ثم مضى ابن الخطيب بعد ذلك فخص مظاهر الاستقبال والحفاوة التى حبا بها أهل بسطة الركب السلطانى الذى انضاف إلى جمال المدينة وزادها رونقاً حيث قال : « فوقع النفير وتسابق إلى لقائنا الجم الغفير، مثل الفرسان صفاً، وانتشر الرجل جناحاً ملتفاً، واختلط الولدان بالولائد، والتمائم بالقلائد فى حفل سلب النهى، وجمع البدر والسهى والضراغم والمها، وألف بين القانى والفاقع، وسد بالمحاجر كوى البراقع، فلا أقسم بهذا البلد وحسن منظره الذى يشفى من الكمد لو نظر الشاعر إلى نوره المتألق لآثرها بقوله فى صفة بلاد جلق :

بــلاد بهــا الحصــباء درَّ وتُرْبُهــا عبيــرُ وأنفــاسُ الريــاح شــمولُ

---

(١) صبح الأعشى فى صناعة الإنشا للقلقشندى ٥ /٢٢١.

(٢) الروض المعطار ٨ / ٢٣٤.

(٣) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣١، ٣٢، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله ج٢ صـ٢٥١.

تسلسل منها ماؤها وهو مطلقُ وصحَّ نسيمُ الروض وهو عليلُ[١]

وكلام ابن الخطيب هنا ذو قيمة تاريخية، لأنه يصف استقبال الناس للركب ويذكر شيئاً من هيئاتهم. [٢]

ثم يُتابع ابن الخطيب وصفه لمدينة بسطة فيذكر بعض عمرانها وضمن بأسمائها الحسان، وعندما ندقق النظر نعثر على بعض المعلومات ذات القيمة الحضارية ففي كلامه عنها نجد أنه كان يوجد بها مسجد يعرف بمسجد الجنة وأن أحد أبوابها كان يسمى باب المسك حيث قال : « رمت إلى غرض الفخر بالسهم المصيب، وأخذت من أقسام الفضل بأوفى نصيب، وكفاها بمسجد الجنة دليلا على البركة، وبباب المسك عنواناً على الطيب يغمر من القرى موج كموج البحر ». [٣]

ومما يدل على براعة ابن الخطيب فى هذه الرحلة أنه مع إبداعه فى سياقها وجمعه بين التصوير والتفصيل لم ينس أن يصور لنا حركة الأنواء، وما اعتور تلك المدينة من تلاعب الرياح وشدتها ، وتهاطل الأمطار إلى الحد الذى ضاقت به بعض النفوس بل خافت وروعت حيث قال : « إلا أن الرياح لاعبتنا ملاعبة الصراع، وكدرت القرى بالقراع، فلقينا من الريح ما يلقاه قلب المتيم من التبريح، وكلما شكت إليها المضارب شكوى الجريح، تركتها بين المائل والطريح ولما توسط الواقع، والتقمت أنجم الغرب المواقع، صدقتنا الريح الكرة، وجادتنا الغمائم كل عين ثرة، حتى جهلت الأوقات، واستراب الثقات، فتستر الفجر بنقابه، وانحجز السرحان فى غابه، وكان أداء الواجب بعد خروج الحاجب ». [٤]

ثم اتجه الركب السلطانى جنوباً ونزلوا بظاهر (حصن شيرون) وهنا نجد ابن الخطيب يأتى بالتفصيل والتصوير الجامع بين وصف المشاهد الطبيعية

---

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى / ٣٢.

(٢) تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس حسين مؤنس /٥٧٣.

(٣) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٢، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله ج٢ صـ٢٥٢، وكذا دولة الإسلام فى الأندلس الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال محمد عبدالله عنان – ج٨ صـ٢٣٤.

(٤) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٢، ٣٣.

والوصف الاجتماعي والنفسي حيث قال : « ونزلنا بظاهر حصن شيرون، وقد ترعرع شباب اليوم، وطالبنا غرة الظهيرة بمنكسر فرض النوم، حسن أشم، ومناخ لا يذم. نزلنا الهضبة بإزائه، وعمرنا من بره ما عجزنا عن جزائه، وعثرنا بين المضارب، ببعض العقارب، سود الرؤوس، متوجة بأذنابها فى شكل الطاؤوس، فتلقينا ذلك بسعة الصدر وقلنا العقرب من منازل البدر ».(١)

فنجده يصف اليوم الذي نزل الركب فيه إلى حصن شيرون بأنه يوم صفا أديمه وحسن نعيمه، وراق مرآه ولم يعكر صفوه إلا ظهور بعض العقارب سود الرؤوس، ومما لاشك فيه أن ابن الخطيب قد أحسن تأويل ظهور العقارب بدلاً من التشاؤم والطيرة منها ».

ثم تواصل الرحلة سيرها إلى نهر وادى المنصورة الذى يبعد قليلاً عن حصن شيرون، وهنا يبلغ ابن الخطيب حد الروعة والتأثير فى رسم المشاهد الطبيعية الرائعة فنراه يصور لنا اختلاجات روحه واهتزازات نفسه التى تفاعلت بمناظر الجنان دانية القطوف، والمخضلة بالمياه والأودية حيث قال : « ورحلنا بمثل تلك الصورة نلتحف ظلال وادى المنصورة، سمر الأندية وسلطان الأودية. يا لها من أرائك مهدلة السجوف، وجنات دانية القطوف، ينساب بينها للعذب الزلال، أرقم سريع الانسلال، وصارم يغمد فى جفون الظلال، يتلاعب بين أيدينا شمالا ويميناً، فطوراً تنقلب عصاه ثعباناً، وآونة تنعطف صولجاناً، وتارة تستدير أفلاكاً، وربما نسجت منه أيدى الرياح شباكاً، وأم حسن فيه ذات لسن، تبعث بنغماتها لواعج الشجون، وتقيم دين ابنها في الخلاعة والمجون. وسرنا ودر الحصى بساط الأرجل ركابنا، ودنانير أبى الطيب تنثر فوق أثوابنا، ترقب نجوم القلاع والحصون، من خلل سحاب الغصون ». (٢)

وواضح أن ابن الخطيب لم يستطع إخفاء ما كان يضطرم فى داخله إلى الانجذاب إلى الهوى والشوق الشديد وهو يرسم لنا صورة أسراب ومجموعات الحسان اللائي جئن لاستقبال الأمير والسلام عليه وإظهار المحبة والمودة له

(١) المصدر نفسه صـ٣٤، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله ج٢ صـ٢٥٣.

(٢) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٤، ٣٥، وكذا الكتاب ونجعه المنثاب وكذا تحقيق محمد عبد الله عنان ج٢ صـ٢٥٣.

ولمن يلوذ به، ونراه يعبر عن جمالهن وحسنهن تعبيراً رائعاً يؤكده ويدعمه بالاقتباس من القرآن الكريم الدال على عظمة المبدع ويظهر ذلك بوضوح فى قوله : « والنساء إلى مشاهدة التبزير قد حفت، وبشاطئ الوادى قد صفت، قد أبرزن الثنايا ببروق الثنايا، وسددن سهام المنايا، عن حواجب كالحنايا، يشغلن الفتى عن شئونه، ويسلبن الروض لين غصونه، هذا خلق الله فأرونى ماذا خلق الذين من دونه ». (١)

ثم تحدث عن (برشانة) وهى حصن مهم من أمنع حصون المرية وأقواها بنيانا وتقع على وادي المنصورة(٢)، وتحدث عن قلعتها السامية الجلال فأثنى على هوائها المعتدل وبواكر وردها ونسائم بردها العليل حيث قال : « وطالعنا برشانة حرسها الله ، فحيتنا ببواكر الورد، ونضت عنا برود البرد، وشملتنا بالهواء المعتدل، وأظلتنا برواقها المنسدل. بلد أعيان وصدور، ومطلع نجوم وبدور، وقلعة سامية الجلال، مختمة بالكواكب متوجة بالهلال ». (٣)

ثم صور استقبال أهلها للركب السلطانى ومبيته فيها تصويراً على وجه الإجمال حيث قال : « حللناها فى التبريز الحفيل، والمشهد الجامع بين الذرة والفيل، حشر أهلها بين دان ونازح، ومثل حاميتها من نابل ورامح، فكان ذلك المجتمع عيداً، وموسماً سعيداً، وبيتنا ليلة للأنس جامعة، ولداع السرور سامعة». (٤)

ثم تواصل الرحلة سيرها شرقاً إلى (قنتورية) فنراه يصور حسن استقبال الأهالى للركب السلطاني حيث قال : « وقد برز أهلها فى العديد والعدة، والاحتفال الذي قدم به العهد على طول المدة، صفوفاً بتلك البقعة، خيلا ورجلا كشطرنج الرقعة ». (٥)

---

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٥، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله ج٢ صـ٢٦٥.

(٢) الروض المعطار فى خبر الأقطار الحميرى – نشر إليفى بروفنسال صـ٤٢.

(٣) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٦.

(٤) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٦.

(٥) المصدر نفسه صـ٣٦، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٥٤.

ويحدثنا ابن الخطيب فى هذا الموضع عن شخصية ظريفة هى شخصية ابن أبى خالد قاضي قتورية وقد صوره لنا فى صورة طريفة وذلك عندما خرج لاستقبال الركب السلطاني فوصفه لنا شخصا لطيفا فى ترحابه مختالا ومزهوا بثقافته الأدبية مقلدا فى تكلف شديد وجدية تامة للهجات المشارقة ومن الواضح أن هذا الوصف كان مؤسساً على الجناس فى مطلقه ثم على التصوير بالألفاظ المصورة لشكله، ثم شرع ابن الخطيب فى هجائه إذ كان مخدوعاً بمظهره كحاج بين رجال إدارته، وكان يضع طيلسان أبيضا على عادة أهل الحجاز كما ترك طرفا عمامته ينسدل على جبهته تماما مثل الجمل بلجامه على أنفه على حد وصف ابن الخطيب[١] يقول : « وقد شهرته النزعة الحجازية، ولبس من حسن الحجى زيه، وأرمى من البياض طيلساناً وصبغ لحيته بالحناء والكتم، ولاث عمامته واختتم، والبداوة تسمه على الخرطوم، وطبع الماء والهواء يقوده قود الجمل المخطوم، فداعبته مداعبة الأديب للأديب وخيرته بين خصلتي الذيب ».[٢]

ويشير ابن الخطيب من خلال رحلته إلى هذه البلاد الشرقية أنها كانت تعانى قحطاً شديداً نتيجة لغارات الأعداء وسيول الأمطار التى اجتاحت أراضيها. ونراه يصور هذه الحالة فى إطار مستملح طريف ومثال ذلك وصفه للدجاجة التى أهداها لهم قاض قتورية فيقول : « فقال : لست إلى قراى بذى حاجة، وإذا عزمت فأصالحك على دجاجة، فقلت : ضريبة غريبة، ومؤونة قريبة، عجل ولا تؤجل، وإن انصرم أمد النهار فأسجل. فلم يكن إلا كلا ولا، وأعوانه من القلعة تنحدر. والبشير منهم بقدومها يبتدر، يزفونها كالعروس فوق الرؤوس، فمن قائل أمها البجابية، وقائل أخوها الخصي الموجه إلى الحضرة العلية. وأدنوا مربطها من المضرب عند صلاة المغرب، والحفوا فى السؤال، لا تشططوا فى طلب النوال فقلت يا بني اللكيعة ولو جئتم ببازي بماذا كنت أجازى، فانصرفوا وما كادوا

(١) بحوث مشرقية ومغربية فى التاريخ والحضارة الإسلامية سحر السيد عبد العزيز سالم – الناشر مؤسسة شباب الجامعة ١٩٧٧ ج١ صـ٤٢٢.

(٢) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٦، ٣٧، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٥٥.

يفعلون، وأقبل بعضهم على بعض يتلاومون حتى إذا سلت لذاكاتها المدى، وبلغ من عمرها المدى، قلت : يا قوم، ظفرتم بقرة العين، وابشروا باقتراب اللقاء فقد ذبحت لكم غراب البين.

وكانت البلاد الشرقية قد اخلقها الغيوث وعدت عليها للعدو الليوث، فيحيتنا على الشحط، وشكت إلى سعادة مقدمنا معرة القحط ». (١)

ولعل هذه المداعبة من ابن الخطيب للقاضي ابن أبى خالد تدل على إنه خرج فى هذا الموضع عن ذلك السياق الذى التزمه فى جل البناء النثري الديوانى الذى طبع به رحلته.

ثم يواصل الركب السلطاني سيره إلى أن يبلغ أقصى الحدود الشرقية وهى مدينة (بيرة) وهى كورة كبيرة من الأندلس ومدينة متصلة بأراضى كورة قبرة، بين القبلة والشرق من قرطبة، بينها وبين قرطبة تسعون ميلاً، وأراضيها كثيرة الأنهار والأشجار، وفى أراضيها معادن وذهب وفضة وحديد، ومعدن التوتيا فى حصن فيها يقال له شلوبنية وفى جميع نواحيها يعمل الكتان والحرير الفائق، وينسب إليها كثير من أهل العلم فى كل فن(٢)، حيث قال : « وخيمنا من بيرة حرسها الله بالثغر الأقصى ومحل الرباط الذي أجر ساكنه لا يحصى». (٣)

وهنا يشير ابن الخطيب إلى معاناة سكان هذا الثغر، وخوفهم الدائم وترقبهم لغارات الأعداء المفاجئة، وإلى خطورة موقع المدينة ووعورة مسالكها وطرقها وبمرور الركب على طريق (قيشر) اضطروا إلى اتخاذ دليل ماهر ليقودهم وسط الجبال والوهاد وهو (رجل ذو احتيال يعرف بابن هلال)(٤) وقد بين ابن الخطيب وعورة هذا الطريق والمصاعب الكثيرة التي كان يتلبس بها إلى المبلغ الذي كاد أن يشرف به الركب على المخاطر، فقد استقبل بهم ابن هلال – كما يصور ابن الخطيب « شعباً مقفلاً، ومسلكاً مغفلا، وسلما حرج الدرج ،

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٧، ٣٨.

(٢) معجم البلدان ياقوت الحموى – تحقيق : فريد عبد العزيز الجندى ج١ صـ٢٨٩.

(٣) معجم البلدان ياقوت الحموى صـ٤٠، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٥٧.

(٤) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٤٠، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٥٧.

سامي المنعرج تزلق الذر فى حافاته، وتراع القلوب لتوقع آفاته، ويتمثل الصراط عند صفاته. أوعار لا تتخلص منها الأوعال، ولا تغنى السنابك فيها ولا النعال ». (١)

فقد استطاع ابن الخطيب أن يوفي على الغاية فى تصوير معاناته ومعاناة من كان معه فى هذه الرحلة من وعورة تلك الطرق والمسالك المهلكة، ومن كيد الدليل ومكره، فينبه المخدوعين به – فى دعابة لطيفة من دعاباته – أن ابن هلال يريد اللحاق بأبيه، ليدعوهم إلى المسارعة بتركه فنراه يصور ذلك حيث قال : « قطعنا بياض اليوم فى تسنم جبالها، والتخبط فى حبالها، نهوى من شاهق إلى وهد، ونخوض كل مشقة وجهد، كأننا فى حلم محموم، أو أفكار مغموم أو برشام نوم.

ولما طال مرام العروج إلى جو السماء ذات البروج، قلت يا قوم انظروا لأنفسكم فيما أصبحتم فيه، واعلموا أن دليلكم ابن هلال عزم على اللحاق بأبيه، ثم أخذنا فى الانحدار بأسرع الابتدار نهوى من المرقب السامي الذرى ونهبط من الثريا إلى الثرى، نتمثل فى ذلك المسلك الواعر، بقول الشاعر :

بطريــق بيــرة أجبــل وعقــاب لا يرتجــى فيهــا النجــاة عُقــاب
فكأنمــا الماشــي عليهــا مُــذْنِبُ وكأنمــا تلــك العِقــاب عِقــاب

حتى إذا استوينا على صفحة الأرض، وتذكرنا بذلك يوم العرض، تخلصنا من السبيل الوبيل، وانتقلنا من الهمز إلى التسهيل، ونزلنا والركائب قد كلت ... ». (٢)

ثم يعود المرتحلون أدراجهم مارين بثغر المرية وهى مدينة إسلامية البناء محدثة الإنشاء أمر ببنائها الخليفة عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر لدين الله سنة ٣٤٤هـ وهى مدينة كبيرة مستطيلة الشكل تمتد قاعدتها الكبيرة من الجنوب على البحر الأبيض المتوسط واسمها مشتق من وظيفتها إذ كانت تتخذ

(١) المصدر نفسه صـ٤٠، ٤١، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٥٧.

(٢) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٤١، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٥٧.

مرأى ومرصداً بحريا لمدينة بجانة القريبة منها التى لا تبعد عنها سوى أربعة أميال غربا، وقد أنشئ فى مدينة المرية فى عهد عبد الرحمن الناصر كثير من المنشآت العمرانية والمعمارية حتى اتخذت فى أيامه طابع المدن وأحاطها بسور منيع، وأقام بها القلعة الحصينة المعروفة بقلعة خيران، نسبة إلى الفتى خيران العامري الذى ولاه عليها المنصور بن أبى عامر فيما بعد ذلك ، وأقام بها عبد الرحمن الناصر داراً لصناعة قطع الأسطول(١)، وكانت المرية بالإضافة إلى كونها قاعدة للأسطول الحربي الأندلسي مركزاً للسفن القادمة من المشرق، وكانت تقصدها السفن التجارية من جميع بلاد البحر المتوسط من الإسكندرية والشام كله، ولم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها، ولا أتجر منهم فى الصناعات وأصناف التجارات تصريفا وادخارا وكانت تشتهر بصناعات المنسوجات الحريرية، وكان يعمل بها الوشي والديباج فيجاد عمله، ولم يتفق فى الأندلس من يجيد عمل الديباج إجادة أهل المرية.(٢)

وفى حديث ابن الخطيب عن مدينة المرية يعود إلى النسق التقليدى الرسمى المعهود فى الرحلات السلطانية الذى يحرره رؤساء ديوان الإنشاء، وهم يصورون مواكب سلاطينهم وحكامهم، وما شاهدوه فى المدن من إكرام الوفادة، ولكننا نراه يعرض ذلك فى معرض أدبى مونق رسم خلاله عظمة الاستقبال الذي احتشدت له المرية، فهو يشير إلى استقبال رجال البحرية للسلطان بملابسهم الجميلة وأبواقهم وطبولهم، وإلى استعراض قطع الأسطول الغرناطي في الميناء.

كما يشير إلى استقبال رجال الجيش وكيف كانوا يحملون على أعناقهم قسي الفرنج، ومن الواضح هنا أنه يشير إلى مدى تأثر مملكة غرناطة بالنظم الحربية للبلاد المسيحية المجاورة مثل قشتالة وأراجون.

---

(١) دولة الإسلام فى الأندلس الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال محمد عبدالله عنان ج٨ صـ٢٦٥، وكذا تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس السيد عبد العزيز سالم – مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ١٩٨٤م صـ١٤، وكذا دائرة معارف الشعب [٢] مطابع الشعب ١٩٥٩ صـ٣٨، ٣٩.

(٢) المصدر نفسه صـ٤٠، وكذا تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس السيد عبد العزيز سالم صـ٣٢، ٣٣.

هذا ومن المعروف أن مملكة غرناطة كانت تستورد أسلحتها من فرنسا ولاسيما من مدينة بوردو (برذيل) لاستخدامها إلى جانب أسلحتها الخاصة التى كانت تصنعها في مدينة المرية. (١)

كما يشير ابن الخطيب إلى الجالية المسيحية المقيمة بثغر المرية، والتى كان أفرادها يشتغلون بالتجارة ويجلبون ألوان البضائع من البلاد المجاورة ، ويصدرون إلها ما تحتاجه من سلع ومنتجات متنوعة .

وقد أوضح ابن الخطيب من خلال حديثه عن مدينة المرية مظاهر العمران والمدنية والعادات الاجتماعية التى تحلى بها هذا الثغر المهم من ثغور الأندلس فقد رمت البلدة . كما صور لسان الدين . في ذلك اليوم الذي سطعت أشعة سعده كما ذكر « بأفلاذها، وقذفت بثباتها وأفذاذها، وبرز أهلها حتى غص بهم سهلها وقد أخذهم الترتيب، ونظمهم المصف العجيب، تقدمت مواكب الأشياخ الجلة، والفقهاء الذين هم سرج الملة، وخفقت أصناف البنود المطلة، واتسعت الجموع التي لا تؤتى بحول الله من القلة، وتعددت بمناكب البدور أشكال الأهلة، في جموع تسد مهبات الصبا، وتكاثر رجل الدبا، صفوفاً كصفوف الشطرنج، على أعناقهم قسى الفرنج، وقد نشروا البنود الشهيرة الألوان ، واستشعروا فى يوم السلم شعار الحرب العوان، يتسابقون من الاحتفال إلى غاية، ويرجع كل منهم إلى شعار وإلى راية، وقد أحسنوا بالمشيخة الاقتداء، ورفعوا بالسلام النداء ». (٢)

ويعنى لسان الدين هنا بإبراز معالم الحضارة المزدهرة في تلك المدينة المهمة ، التي تضطلع بمهام أمنية ، وترتبط بعلاقات تجارية ، فضلا عن كونها قلعة صناعية لها خطرها وأهميتها ، وهي ثغر من ثغور المسلمين يقف صامدا في مواجهة أطماع الفرنجة . ومن هنا تتضح لنا أهمية رسالة ابن الخطيب ودلالاتها التاريخية بحسبانها وثيقة ديوانية تسجل جانبا تاريخيا وحضاريا له أهميته .

لقد حرص لسان الدين في هذا الجزء من رسالته على ذكر دقائق ما رآه ويبدو أن الركب السلطاني قضى بالمرية وقتا من الزمن سمح لابن الخطيب بتتبع

(١) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٤٣.

(٢) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٤٣.

هذه الأمور وإجادة وصفها وذكر تفصيلاتها ، فلم يكتف بالحديث عن العدد الكبير والحشد المهول ممن كانوا في استقبال الأمير أو هيئاتهم وصفوفهم، أو مثول أكابرهم من الشيوخ والفقهاء وغيرهم بين يديه فحسب، وإنما نراه يعمد إلى إظهار جمال لباسهم المدني والعسكري، وفخامة أسطولهم، وأدواتهم الحربية، وإلى ما توجوا به ركب السلطان أبى الحجاج يوسف من مظلة كبيرة من الحرير لتحجب عنه أشعة الشمس وقد صور ابن الخطيب ذلك فى صورة رائعة حيث قال : «وامتاز خدام الأساطيل المنصورة في أحسن الصورة، بين أيديهم الطبول والأبواق تروع أصواتها وتهول. وتأنق من تجار الروم من استخلص العدل هواه، وتساوى سره ونجواه، فى طرق من البر ابتدعوها، وأبواب من الاحتفاء شرعوها فرفعوا فوق الركاب المولوي على عمد الساج ، مظلة من الديباج، كانت على قمر العلياء غمامه، وعلى زهر المجد كمامه، فراقتنا بحسن المعانى». (١)

ثم يصف السفن المتراصة فى المراسى ويصورها تصويرا رائعاً حيث قال : « وطلعت فى سماء البحر أهلة الشوانى، كأنها حواجب الغوانى، حالكة الأديم، متسربلة بالليل البهيم، تتزاحم وفودها على الشط، كما تتدخل النونات فى الخط، فيا له من منظر بديع الجمال ». (٢)

ودار سياق الرحلة بعد ذلك على وصف بديع لتدافع أهل المرية على السلطان فى سرادقه ، فبين إقبالهم وتهافتهم على مقامه حيث قال : « حتى إذا هالة القبة استدارت، وبالقمر السعد من وجه السلطان، أيده الله، أنارت، مثلوا فسلموا، وطافوا بركن مقامه واستلموا، واجهروا بالتلبية، ونظروا، من وجهه الجميل إلى سعد الأخبية، وتزاحم من النساء الأفواج، كما تتدافع الأمواج، فرفع الجناح، وخفض الجناح، ومهد لهن سبيل العطف وشملهن كنف الإشفاق واللطف ». (٣)

ثم عرج لسان الدين بعد ذلك على صعود السلطان فى ثالث يوم من قدومه إلى قلعة المدينة لتفقد حصونها الدفاعية ومشاهدة آثار الأولين الذين ساهموا فى

---

(١) المصدر نفسه ٢/ ٢٥٩ .

(٢) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب ٢/ ٤٤.

(٣) المصدر نفسه /٤٤، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٦٠.

تأسيسها ولاسيما خيران العامرى الصقلبى الذى بنى قصر القصبة ويعرف فى كتب التاريخ العربى باسم (بهو خيران) [١]، وأيضاً المعتصم بن صمادح (١٠٤١ ٠ ١٠٩١م) الذى أقام إلى جانب البهو قصر الصمادحية المشهور، وهما من ملوك الطوائف الذين حكموا هذه المنطقة فى القرن الخامس الهجرى (الحادى عشر الميلادى).

ويبدو من سياق وصف لسان الدين للرحلة أن السلطان إعجابا منه باستقبال أهل المرية له ، وطرافة ما شاهده فيها طاب له فيها المقام ، وبقي فيها نحو خمسة أيام .. يقول لسان الدين :" وركب السلطان أيده الله ثالث يوم وروده إلى مشاهدة قلعتها الشماء، المتعلقة بعنان السماء، فقدح سكانها زناد البارق المتألق، وتلعب صبيانها على جناح الطائر المحلق، وعلى سمو مكانها وجلالة شأنها، فدولابها شجي المزمار، ومياهها في انهمار، وخزائنها تستغرق طول الأعمار، وعددها كفيلة لحماية الذمار، فعوذناها من كل خطب فادح، وحيينا بها بهو خيران وقصر ابن صمادح ونظرنا إلى تلك الآثار الكبار، التي تغني عن الأخبار ». [٢]

ولعل من طريف ختام ابن الخطيب لفصول رحلته ما ذكره عن مدينة المرية عند وداعها، حيث أظهر نوازع النفس وتوقها إلى رياضها وتعلقها بالديار وأهلها، وقد اختار لإظهار هذا الوفاق والانسجام بين الزوار والبلدة المزورة من خلال تصويره لأمرين :

الأمر الأول : وصفه لعظم محبة الركب السلطاني لهذه المدينة التى أقاموا بها خمسة أيام، واستعمل فى هذا المقام رمزاً أسطورياً كتميمة ومعوذة لها، إظهاراً لهذه المحبة حيث قال : « وكان الرحيل عن تلك المدينة لا عن ملال، ولا عن ذم خلال ولكن مقام بلغ أمدا، ورحلة انتهت إلى مدى.

أقمنـــا بهـــا يومـــاً ويومـــاً ثالثـــاً ويـــوم لـــه يـــوم الترحـــل خـــامس

(١) قلائد العقبان أبو النصر الفتح محمد بن خاقان طبعة مصر ١٣٢٠هـ صـ٤٨.
(٢) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٤٥، ٤٦.

فيا لها من خمسة علقها الدهر تميمة على نحره، وأثبتها معوذة فى قرآن فخره . كانت لياليها معطرة النواسم، وأيامها كأيام المواسم . (١)

والأمر الآخر : يبين فيه ترحيب أهل المرية بالركب وتجاوبهم معه وسياق الرحلة يؤكد على أنها أظهرت من الشوق إليهم ما أظهروه نحوها، ولعل ابن الخطيب قد قسم هذا التجاوب إلى جزئين : أحدهما : من الأهل والسكان، والآخر : من الطبيعة والعمران .

وقد عبر عن الجزء الأول بقوله : « وثنينا الأعنة إلى الإياب، وصرفنا إلى أوطاننا صدور الركاب، فكم من قلب لرحيلنا وجب، لما استقل ووجب، ودمع لوداعنا عظم انسكابه، لما رمت للبين ركابه، وصبر أصبح من قبيل المحال عند زم الرحال، وإلف أنشد بلسان النطق والحال .

ومضى وخلّف فى فؤادى لوعة ... تركتُــه موقوفــاً علــى أوجاعــه
لــم أســتتم ســلامه لقدومــه ... حتــى ابتــدأت عناقــه لوداعــه(٢)

وعبر عن الجزء الآخر حيث قال : « وانصرفنا وعروشها تتعلق بأذيالنا، ومخاضات واديها تعترض صدور رجالنا، ورياحها تدافعنا عن المسير ومعالمها تقنع من إلمامنا ولو باليسير » . (٣)

ثم بعد ذلك يغادر الركب السلطاني مدينة المرية مارين ببعض المدن المهمة مثل (بجانة) وهى من أعمال كورة إلبيرة خربت وقد انتقل أهلها إلى المرية، وبينها وبين المرية فرسخان وبينها وبين غرناطة مدينة ابن الخطيب مائة

(١) المصدر نفسه صـ٤٦، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٦١ .

(٢) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٤٦، ٤٧، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٦١ .

(٣) المصدر نفسه صـ٤٧، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٦١ .

ميل، وهى ثلاثة وثلاثون فرسخاً[١]، وقد وصف ابن الخطيب نهرها السيال والأفياء والظلال، ومسكها الأذفر وسندسها الأخضر، ومسجدها الجامع، ومنظرها الفتان حيث قال : « واستقبلنا وادى بجانة وما أدراك ما هو، النهر السيال، والغصن الميال، والأفياء والظلال . المسك ما فُتّ فى جنباته، والسندس ما حاكته يد جناته، نعمة واسعة، ومساجده جامعة، أزرت بالغوطتين زياتينه وأعنابه، وسخرت بشعب بوان شعائبه، بحيث لا تبدو آيات ولا تتأتى للحرباء حيات » . [٢]

ثم تواصل سيرها إلى (مرشانة) وهى حصن حصين فى مقاطعة المرية ونراه يصفها وصفاً اقتصر فيه على تصوير جوها البرد المطير، وامتلاء الأودية والسواقى بالماء النمير حيث قال : « إلى مرشانة وهى الكوكب الأعلى، والأشهب المحلىَّ، والصباح إذا تجلى، والعروس على المنصة تجلى . وبها حلت الغيوم سموطها، ومدت عناكب السحاب خيوطها، فبتنا وعيون المزن باكية، والمنازل من توقع فراقنا شاكية » . [٣]

ثم وصف ابن الخطيب ما كابده وعاناه من صعوبة اجتياز ذلك الوادى حيث قال : «واستقبلنا الوادى نجعله دليل تلك الطريق، ونتبعه فى السعة والضيق، فكم مخاضة منه عبرنا، وعلى مشقتها صبرنا، حتى قطرت الأذيال والأردان، وشكت أذى الماء الأبدان، وتوفرت ذو الضجر، لملازمة الماء والحجر، ونسينا بمعاناته ألم البعاد » . [٤]

---

(١) معجم البلدان ياقوت الحموى – تحقيق : فريد عبد العزيز الجندى ج١ صـ٣٠٤ .

(٢) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٤٧، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٦١، وكذا تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس السيد عبد العزيز سالم صـ٤١، ٤٢ .

(٣) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٤٨، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٦١، ٢٦٢ .

(٤) المصدر نفسه صـ٤٨، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٦١، ٢٦٢ .

ثم تواصل الرحلة سيرها نحو دار (عبلة) ويحيط بهذا المكان حتى وادى آش حيال تعرف بالسند، وتقع عبلة فى جنوب شرق فنيانة[١] ويمر أيضاً بلورسانة كما يمر بفنيانة وهى تعرف بالحصن وتقع فى مقاطعة المرية على مسافة ٣٠ كيلومتر جنوب شرق وادى آش، وهى ذات خصب ونعمة . [٢]

ثم اتجه الركب بعد ذلك صوب وادى آش، وهنا يعاود ابن الخطيب الوصف البديع الذى خص به الركب فى وادى آش، ومن بديع وصفه الذى وشى فاصلاته بالجناس المستملح فيها قوله : « واختلط النساء بالرجال، والتف أرباب الحجا بربات الحجال، فلم نفرق بين السلاح والعيون الملاح، ولا بين حمر البنود وحمر الخدود، وبتنا بازائها ونعم الله كافله، ونفوسنا فى حلل السرور رافلة . حتى إذا ظل الليل تقلص، وحمام الصبح من مخالب غرابه قد تخلص، سرنا وعناية الله ضافية، ونعمه وافية » . [٣]

بينما أشار عند نزوله بوادى فردس الذى كان أول المدن التى مر بها الركب فى بداية الرحلة عند الخروج من غرناطة، واخترق فحص غرناطة الأفيح، ثم دخل الحضرة فى صباح اليوم التالى وجاز السلطان قصر الحمراء وقد صور ابن الخطيب تلاحق وفود التهانى، وسفور وجوه الأمانى، بسلامة العودة حيث قال : « فنزلنا بوادى فردس، منازلنا المعتادة، وقلنا رجع الحديث إلى قتادة، وبها تلاحقت وفود التهانى، وسفرت وجوه الأمانى . نزلنا بالمروج فتفتحت بها أزهار القباب البيض فى بساطها العريض، وخطرت ببالى مقطوعة فى مخاطبة المولى أنجح الله عمله ويسر من فضيله أمله، أثبتها على حكم الاستعجال . وأوصفت على بيوتها خيل الارتجال » . [٤]

ثم نظم عشرة أبيات فى امتداح السلطان أبى الحجاج وتهنئته بسلامة العودة .

---

(١) المصدر نفسه صـ٤٨ .

(٢) المصدر نفسه صـ٤٩ .

(٣) المصدر نفسه صـ٥٠ .

(٤) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٥٠، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٦٣ .

لقد استطاع ابن الخطيب أن يبرز بأسلوب جلى شفاف شدة الشوق إلى الأهل والديار الذين دنت قبابهم ومضاربهم وعن الخواطر النفسية البرحاء التى كانت تملأ أرواح رفاق فمن ذلك قوله : « استقبلنا الحضرة حرسها الله، فأنست النفوس بعد اغترابها، واكتحلت العيون بإثمد ترابها، واجتلبنا من فحمها الكريم الساحة ، الرحب المساحة ما يبهر العين جمالا، ويقيد الطرف يميناً وشمالا، أم البلاد والقواعد، وملجأ الأقارب والأباعد » . (١)

ثم مضى بعد ذلك التصوير الرائع إلى تعداد جمال الحضرة وتفضيلها ليس على المدن الأندلسية فحسب، بل عمد بدافع حب الأوطان المركوز فى طبيعة كل إنسان – إلى إعلائها على دمشق الشام وبغداد العراق حيث قال : «وقامت وصائف القرى فى ذلك البساط بين يديها، فمن ذا يدانيها أو يداريها أو يناهضها فى الفخار ويجاريها، وهى غاب الأسود، والأفق الذى نشأت فيه سحاب الجود، وطلعت به من الأمراء السعداء نجوم السعود، سيدة الأمصار، ودار الملوك من أبناء الأنصار، ومصرع الطواغيت والكفار » . (٢)

وقد انتهت هذه الرحلة التى سماها ابن الخطيب (خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف) بوصول الركب السلطانى الذى كان فيه ابن الخطيب نفسه إلى قصور الملك، حيث وقف مع رفاقه مهنئين ومسلمين، وقالوا : ﴿ ادخلوها بسلام آمنين ﴾(٣) وذلك يوم الأحد الثامن لصفر عام ثمانية وأربعين وسبعمائة .

لقد كانت هذه الرحلة على الرغم من كونها رحلة محدودة زمانا ومكانا حيث لم تتجاوز فى زمنها العشرين يوماً ولم تتجاوز فى محيطها المكانى مسافة مائتي كيلومتر من أرض الأندلس الرائعة الجميلة – من أطرف نصوص فن الرحلة فى أدبنا العربى، ومن ألوان التجديد والإبداع فى فن المقامات التى صير ابن الخطيب فن الرحلة غرضاً من أغراضها، ملتزماً بشرائط الوصف والتصوير

(١) المصدر نفسه صـ٥١، ٥٢، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٦٣ .

(٢) مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٥٢ .

(٣) سورة الحجر الآية ٤٦.

اللازمين لفن الرحلة، ومتقيداً أيضاً بأصول فن المقامة في اختيار الألفاظ، ومراعاة الفواصل والأسجاع .

ولعل الدكتور حسين مؤنس قد أخطأ تقييم هذا الأثر الإبداعي المقامي حين حاول إخضاعه لعلم الجغرافيا[١] متناسياً أن ابن الخطيب أراده أن يكون لوناً تجديدياً يجعل فيه فن الرحلة غرضاً طريفاً من أغراض فن المقامات ومضامينها .

❁❁❁

(١) تاريخ الجغرافيا والجغرافيين فى الأندلس حسين مؤنس /٥٧٣ .

المبحث الثانـي
رحلة خطرة الطيف
الخصـائـص الفـنـيـة

يعد لسان الدين ابن الخطيب من أعظم أدباء عصره ، بل لعله أعظمهم على الإطلاق ، وهو أديب متعدد المواهب والملكات ، برع في الكتابة ، وبرز في الشعر ، وشُهر بالخطابة وفصاحة المنطق وحسن البيان ، وكان عالما باحثا مؤرخا ، ينادم الرؤساء ، ويجالس العلماء ، ويبذ الحكماء ...، وأعظم ما يتميز به نثر ابن الخطيب وفرة التنوع والافتنان فى الموضوعات والمعانى، ويرجع ذلك إلى التكوين العلمى والأدبى الجاد الذي اتسمت به شخصيته الأدبية، وتأصلت به ملكاته ومواهبه ، ثم إنه تميز باتساع آفاق اهتماماته وميادين إبداعه ، فلم يحبس قلمه وفكره فى دائرة محدودة من التأليف، بل أجراه فى حلبات عديدة، فكتب فى الإنشاء الأدبى وفى التاريخ أو الأدب التاريخى، وفى التصوف وفى الموسيقى وفى الطب، وكتب آثاره فى الآداب وفى العلوم على حد سواء بلغة أدبية رفيعة، وقد أغنى هذا الاتساع آثاره العلمية والأدبية، بحيث إن قارئ الأولى يجد فيها رفيف الأدب، وقارئ الأخرى يجد فيها خصوبة العلم، مما طبع آثاره بعامة بطابع العمق .

كما يرجع ذلك أيضاً إلى الموهبة والقريحة وسرعة الخاطر والهاجس المساعف بالإنشاء، والتدفق فيما يتناوله من فنون القول – وقد ساهم هذا العامل مع العامل الآخر المتمثل فيما ابتلى به من داء الأرق، فى وفرة نتاجه وتراثه ولعل من الواضح أن ابن الخطيب كان مسكوناً فى خلقه الأدبى بهاجسين كبيرين كانا دون شك من خصائص إبداعاته النثرية، ومن طوابع تميزه وهما : تجديد بنية الخطاب النثري ، وإبداعه في الغرب الإسلامي ، والعمل على مجاراة فنون النثر الأدبي المشرقي والتفوق عليه .

ولقد أنصفه كثيرون ممن ترجموا له أو تناولوا نتاجه المتنوع إذ شهدوا فى آثاره الغزارة الأدبية ، والوفرة العلمية يقول عنه الأمير الأديب أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر : « هو شاعر الدنيا، وعلم الفرد والثنيا، وكاتب الأرض إلى يوم العرض، لا يدافع مدحه فى الكتب، ولا يجنح فيه إلى العتب آخر من تقدم في الماضي، وسيف مقوله ليس بالكهام، إذ هو الماضي، وإلا فانظر كلام الكتاب

الأول من العصبة، كيف كان فيهم بالإفادة صاحب القصبة، للبراعة باليراعة، وبه أسكت صائلهم، وما حمدت بكرهم وأصائلهم المشوبة بالحلاوة، الممكنة من مفاصل الطلاوة، وهو نفيس العدوتين، ورئيس الدولتين، بالإطلاع على العلوم العقلية، والإمتاع بالفهوم النقلية » .(١)

ويصف ابن خلدون فى مقدمته ابن الخطيب قائلا :« شاعر الأندلس والمغرب فى عصره وأنه كان فى اللسان ملكته لا تدرك ».(٢)

كما قال عنه أيضاً وشهد له بأنه : « إمام النظم والنثر في الملة الإسلامية غير مدافع » .(٣)

وكلمته أيضاً الدالة على كمال تحصيل لسان الدين بن الخطيب وقدرته على بلاغة التبليغ « وكان الوزير ابن الخطيب آية من آيات الله فى النظم والنثر، والمعارف والأدب ؛ لا يساجل مداه، ولا يهتدى فيها بمثل هداه » .(٤)

لقد اختار لسان الدين بن الخطيب فى رسالته (خطرة الطيف فى رحلة الشتاء والصيف) منحى أسلوبياً متأنقاً متدفقاً من خلال العناية بالألفاظ والتعبير والتصوير الفنى، وقد كانت هذه العناية – كما لا يخفى – متولدة عن الغرض الذى انبنت عليه الرحلة الأندلسية فى الأساس، وهو تسجيل رحلة سلطانه أبى الحجاج يوسف التفقدية فى مدن مملكته .

---

(١) نثير الجمان فيمن ضمن وإياهم الزمان أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر – نسخة مخطوطة وحيدة من هذا الكتاب بدار الكتب المصرية – وتحمل رقم ١٨٦٣ آداب، وكذا نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان إسماعيل بن الأحمر – تحقيق : محمد رضوان الداية / ٢٤٣، وكذا الأدب الأندلسي التطور والتجديد محمد عبد المنعم خفاجى /٦٤١، وكذا الفن ومذاهبه فى النثر العربى / ٣٣٤ .

(٢) مقدمة ابن خلدون تاريخ العلامة ابن خلدون /١٠٩١ .

(٣) المصدر نفسه /١١٥٦، وكذا الأدب العربى فى الأندلس عبد العزيز عتيق /٤٠١ .

(٤) التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً عبد الرحمن ابن خلدون/ ١٦٧ .

اللغة والعبارة :

تعد لغة لسان الدين ابن الخطيب فى هذه الرسالة لغة الأديب الراصف لتعابيره بعناية وتأنق تامين، والحريص على تماسك نصه الأدبي المشع بالشكل والمضمون فى آن واحد، يكفى أن نمثل له هنا بما جاء فيها متصلاً بالحديث عن مدينة (برشانة) التى يقول فى وصفها : « وطالعنا برشانة حرسها الله، فحيتنا ببواكر الورد، ونضت عنا برود البرد، وشملتنا بالهواء المعتدل، وأظلتنا برواقها المنسدل . بلد أعيان وصدور، ومطلع نجوم وبدور، وقلعة سامية الجلال، مختمة بالكواكب متوجة بالهلال » . (١)

ثم يستطرد متدفقا بأسلوبه المشوق: « حللناها فى التبريز الحفيل، والمشهد الجامع بين الذرة والفيل، حشر أهلها بين دان ونازح، ومثل حاميتها من نابل ورامح، فكان ذلك المجتمع عيداً، وموسماً سعيداً، وبتنا فى ليلة للأنس جامعة، ولداع السرور سامعة . حتى إذا الفجر تبلج، والصبح من باب المشرق تولج، سرنا وتوفيق الله قائد، ولنا من عنايته صلة وعائد » . (٢)

ولعل من الملاحظ من أسلوب لسان الدين إيثاره الجزالة اللفظية في جل كتاباته، ويبدو أنه وأمثاله من كتاب العربية الكبار وأصحاب الأساليب كانوا مدفوعين إلى إيثار جزالة اللغة وإغرابها في بعض الأحيان لدواع كثيرة، لعل من أبرزها اتساع تحصيلهم منها، وأن يتفرد نثرهم الفني عن نثر من سواهم من صغار الكتاب الذين عجزوا عن أن يحلقوا بأجنحتهم فى الفضاء البعيد الرحيب الذى يحلق فيه الأعلام المبرزون . وفى الحق فإن أسباباً متعددة كانت من وراء تلبس أسلوب ابن الخطيب بهذه الجزالة التي قد تجنح أحيانا إلى الإغراب . ولو من منظورنا العصري . وإن كانت على الحقيقة ليست غرابة مطلقة ، أو غموضا ممقوتا ، وقد يكون من أسباب ذلك الرغبة في إظهار البراعة في الصنعة اللفظية ، واستجلاب السجع وتوافق الفواصل ، وتوازن الجمل والعبارات ، ولنتأمل هذه الفقرة من تصويره للرحلة التي أسلفتها عن دخولهم مدينتى (عبلة) و (لورسانة)

(١) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادي /٣٦ .
(٢) المصدر والصفة /٣٦ .

يقول : " ... بقعة[١] حظها من النعم[٢] موفور، وبلدة طيبة ورب غفور، حللناها ومنادى العجماء يعرب، والشمس يراودها المغرب، وقد عظم أثر الهياط والمياط[٣]، وسطا الكلال بالنشاط[٤] . وبتنا والشيح[٥] وسائد[٦] مضاجعنا ، وشكوى التعب[٧] حلم[٨] هاجعنا[٩] »

فأنت تراه فى ذلك المقطع من رسالته يتأنق في الصياغة ، ويصف المشهد وصفا دقيقا ، فهي بلدة كثيرة الخيرات ، موفورة الحظ من النعم والأرزاق ، تصادف دخول الركب السلطاني إليها قبيل الغروب ، وقد تنادى رعاة الإبل والشاء فيها على قطعانعهم ، وجدوا في إعادتها إلى مراحها ، فعلت الأصوات وتداخلت ، وعظمت الجلبة ، وتكاثف الغبار ، وجنح الناس بعد طول كد وعناء إلى الراحة ، حتى كأن شكاية التعب هي الحلم الذي راود من خلدوا إلى النوم !!

---

(١) **بقعة** :– والبقعة والبقيعه ، والضم أعلى قطعة من الأرض على غير هيئة التى يجنبها والجمع بقع وبقاع ، لسان العرب لابن منظور ٥٦٧/١ .

(٢) **النِعَم** :– بخلاف البؤس .

(٣) **الهياط والمياط** :– قال الفراء الهياط أشد السوْق فى الورد، والمياط أشد السوْق فى الصدر، ومعنى ذلك بالمجئ والذهاب، اللحيانى : الهياط الأقبال، والمياط : الإدبار، وقال الليث : الهياط المزاولة . والمياط الميل . ويقال : أرادوا بالهياط الجلبة والصخب والمياط التباعد والتنحى والميل .

(٤) **النشاط** :– ضد الكسل يكون ذلك فى الإنسان والدابة .

(٥) **الشيح** :– نبت سهلٌ من الفصيلة المركبة رائحته طيبة قويَّة، وهو كثير الأنواع ترعاه الماشية – المعجم الوجيز صـ٣٥٦ .

(٦) **وسائد** :– الوسادة المخدة، والمتكأ : كل موضع تحت الرأس من تراب أو حجارة أو غيره ج وسد الوسادة، أو الوساد ج وسادات ووسائد – المصدر نفسه صـ٦٦٨ .

(٧) **التعب** :– شدة العناء ضد الراحة – المصدر نفسه ج٢ صـ٣٨ .

(٨) **حلم** :– الحُلْمُ والحُلُم : الرؤيا والجمع أحلام يقال : حلم يحلم إذ رأى فى المنام – المصدر نفسه ج٣ صـ٣٥٤ .

(٩) **هاجعنا** :– هجع هُجُوعاً : نام ليلاً، هَجَّع : أكثر من الهجوع والهجعة : النومة الخفيفة من أول الليل – المصدر نفسه ج١٥ صـ٤٠، وكذا مشاهدات لسان الدين بن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٤٩ .

۞۞۞

هذا من جانب الألفاظ والعبارات أما جانب الأسلوب فقد برع لسان الدين في توظيف الأدوات البلاغية التقليدية ، ولكنه عالجها بطريقة تنم عن موهبة وذوق أدبي راق ، إذ جعلها تنساب فى سياقات رسالته انسياق الماء فى أحضان الزهور الناعمة، فأخرج أنساقها من مجرد غرض الإبلاغ إلى غرض رفيف البلاغة وشعرية الخطاب النثري.

التصوير بالتشبيه :

أشاع لسان الدين بن الخطيب التصوير بالتشبيه فى رسالته للإفادة من بلاغته وإيضاح معانيه، من ذلك تصويره تدافع أسراب الغيد فى استقبال السلطان بمناسبة زيارة بلدتهم وتزاحمهن لرؤيته، حيث أبرز التصوير بالتشبيه لوحة فنية جيدة أعطت للمشهد بعداً جمالياً مستمداً من قوة المشبه به في الوصف حيث قال : « فرأينا تزاحم الكواكب بالمناكب وتدافع البدور بالصدور بيضاء كأسراب الحمائم، متلفعات بروضهن تلفع الأزهار بالكمائم » . (١)

فالصفة فى المشبه به فى أسراب الحمام فى بياضها ونقائها، وكمائم الأزهار فى بهائها وسترها أظهر وأجلى من صفة المشبه، وهو ما يسهم فى جمال الصورة الفنية فى الرسالة . ومن التصوير بالتشبيه أيضاً الذى برع فيه ابن الخطيب قوله: « ولم تزل الركائب تفلي الفلاة فري الأديم، وأهلة السنابك صيرها السير كالعرجون القديم » .

ومن ذلك أيضاً قوله فى تصوير مرأى الحسان وقد كشفن سوقهن : «وعذارى كشفت حللها الخضر عن الشوق، كأنهن شمرن الأذيال لتعبر الوادي على عادة نساء البوادي » . (٢)

ومن ذلك التصوير التشبيهي أيضاً قوله واصفاً الركب السلطاني ووصوله إلى غرناطة : « وصلنا والجو مصقول كالفرند، والسماء كأنها لصفائها مرآة الهند » .

---

(١) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب / ٢٨، ٢٩، وكذا ريحانة الكتاب ٢ /٢٥٠ .
(٢) المصدر نفسه / ٣٣، ٣٤، وكذا ريحانة ٢٥٣/٢ .

فابن الخطيب كما رأينا فى سياق تلك الأمثلة يلحظ المناسبة الأكيدة بين المشبّه والمشبه به، ويفيد نثره من بلاغة التشبيه فيجعل تصويره حياً إيجابياً .

ومن التصوير التشبيهي الذى يكون فيه المشبه محسوساً والمشبه به مجرداً نورد من ذلك تشبيهه لما كان يعانيه والركب من الجهد والمشاق حيث قال : « نهوى من شاهق إلى وهد، ونخوض كل مشقة وجهد، كأننا في حلم محموم، أو أفكار مغموم » . (١)

فقد جاء التشبيه معبرا عن الأحوال النفسية والخلجات، فساهم فى بناء صورة فنية فى سياق إبداعاته الأسلوبية وبنائه البلاغى .

التصوير بالاستعارة :

ومن الخصائص الفنية لأسلوب ابن الخطيب التصوير الاستعاري وقد عنى بهذا التصوير فى رسالته من ذلك ما أورده فى قوله أثناء وصفه للأنواء فى السماء : « خرجنا وصفحة الأفق بالغيم منتقبة، وأدمع السحب لوداعنا منسكبة نتبع من الراية الحمراء دليلا هادياً، ونغترف من وجهتنا الجهادية سناء باديا » . (٢)

ومن ذلك أيضاً قوله : « فلما شاب مفرق الليل، وشمرت الآفاق من بزتها العباسية فضول الذيل، بكرنا نغتنم أيام التشريق، وندوس بأرجلنا حيات الطريق» . (٣)

ومن تصويره الاستعاري أيضاً قوله يصف النزول بحصن شيرون : «ونزلنا بظاهر حصن شيرون، وقد ترعرع شباب اليوم، فطالبنا غريم الظهيرة بمنكسر فرض النوم » . (٤)

---

(١) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب صـ٤١، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٥٧ .

(٢) المصدر نفسه صـ٢٧، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٥٩ .

(٣) المصدر نفسه صـ٣٠، ٣١ .

(٤) المصدر نفسه صـ٣٤ .

ومن ذلك أيضاً تصويره مساحة من الطريق جرداء قاحلة، لقى فيها الركب العذابات لترى تشخيصه أفق السماء المكفهر، وتعثر القوم والرواحل فى الماء والوحل « ثم بدلنا ذلك الوادي بالعراء، واستقبلنا أرضاً شبيهة بالصحراء ملاعب للريح، ومنابت للسدر والشيح سحبت بها عين السحاب فضول الذيل، وطفف الغمام فى الكيل، وغار النور، وفار التنور، وفاضت السماء، والتقى الماء، فالركائب تسبح سبح الأساطيل، والأرجل تزهق زهوق الأباطيل، والمبارك تعدى، والأدلة لا تهتدى، واللباس قد غير الطين من شكله والإنسان قد رجع من الماء والحمأ إلى أصله » . (١)

ومن الخصائص الفنية لأسلوب لسان الدين بن الخطيب، عنايته بفن الربيع فقد حفلت آثاره بالعديد من صور المحسنات البديعة التى كان لها تأثيرها الظاهر فى أشكال نثره وأسلوبيته، يقول الدكتور محمد عبد المنعم خفاجى عنه: « ويمتاز أسلوبه فى الكتابة بالسجع والإطالة والعناية بالصناعة اللفظية والقصد إلى التنميق واستخدام المحسنات البديعة » . (٢)

وقد لاحظ الدكتور شوقى ضيف فى تقييم فنه النثرى أنه لا يختص فيه بمذهب معين، وإنما كان ينتقل من مذهب الصنعة إلى مذهب التصنيع إلى مذهب التصنع، وأنه يمزج بين تلك المذاهب . (٣)

المحسنات اللفظية :

ففى رسالته نجد المحسنات اللفظية والمحسنات المعنوية فمن المحسنات اللفظية التى وردت اقتباسه من القرآن الكريم عند حديثه عن وادى فردس التى وصف معقلها بقوله : « معقلها بادى الجهامة، تلوح عليه سمة الشهامة، نفقت

(١) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب صـ٣٩، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٥٦ .

(٢) قصة الأدب فى الأندلس محمد عبد المنعم خفاجى – بيروت – مكتبة المعارف ١٩٦٢ – ج١ صـ٣٢٨ .

(٣) الفن ومذاهبه فى النثر العربى شوقى ضيف صـ٣٣٧ .

سوق النفاق دهراً، وخطبتها الملوك فلم ترض إلا النفوس مهراً، طالما تفرقت وتنكرت، وحجتها نعم الأيالة النصرية فأنكرت، ومسها طائف من الشيطان ثم تذكرت، فالحمد لله الذي أن هداها بعد أن تبت يداها » . (١)

ففى قوله ومسها طائف من الشيطان إشارة إلى الآية القرآنية ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ ﴾ . (٢)

وفى قوله تبت يداها إشارة إلى الآية القرآنية ﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ (٣)

فغير خاف ما أبانه الاقتباس البليغ من وصف عناد هذا المعقل وإبانته بإيماء الآية الأولى، وعلى رجوعها إلى الحق بعد الضلال كما ألمحت الآية الثانية .

كذلك اعتمد نص الرحلة على الإتحاف بجملة من النقول السارية فى سياقات النص، ومن هذه النقول ما استأنس بالنظم القرآنى الذى جاء خفياً مستملحاً كما يظهر ذلك بوضوح فى هذه الفقرات : « ونغترف من وجهتنا الجهادية سناء بادياً، ونثق بوعد ا لله سبحانه فى قوله ولا يقطعون وادياً » .(٤)

ففى قوله ولا يقطعون وادياً إشارة إلى الآية القرآنية :﴿ وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِيًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢١﴾ ﴾ . (٥)

ومن ذلك أيضاً قوله: « وجمالها نادى بأهل المدينة، موعدكم يوم الزينة».

ففى قوله موعدكم يوم الزينة إشارة إلى الآية القرآنية:﴿ قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ ٱلزِّينَةِ وَأَن يُحْشَرَ ٱلنَّاسُ ضُحًى ﴿٥٩﴾ ﴾ . (٦)

---

(١) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٢٩ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠١ .
(٣) سورة المسد الآية ١ .
(٤) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٢٧ .
(٥) سورة التوبة الآية ١٢١ .
(٦) سورة طه الآية ٥٩ .

أو هذا الاختلاس الملحوظ فى قوله يصف إقبال المدينة وإدبارها على الحاكمين : « طالما تعرفت وتنكرت، وحجتها نعم الأيالة النصرية فأنكرت، ومسها طائف من الشيطان ثم تذكرت » . (١)

فهو اختلاس مرموز به إلى الآية القرآنية الكريمة المتحدثة عن التوابين قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾ ﴾ . (٢)

ومن الخصائص الفنية لأسلوب لسان الدين بن الخطيب براعته فى الأخذ بمحاسن السجع وتفننه فى استعمال ألوانه بمهارة، أضفى إليها الحيوية والتنوع فى سياقات الرحلة .

إن أبرز ما يلحظ فى أسجاعه أخذه فيها بالسجع الذى تساوت فقره – وهو المعدود عند البلاغيين من أحسن السجع .

من ذلك السجع الذى جاء فى معظمه سجعاً متساوياً متوازياً قوله : « ثم استقلت بنا الحمول، وكان بوادى فردس النزول، منزل خصيب ومحل له من الحسن نصيب ولما ابتسم ثغر الصباح، وبشرت بمقدمه نسمات الرياح، الغينا عمل السراج إلى الإسراج، وشرعنا فى السير الدائب، وصرفنا إلى وادى آش صروف الركائب . واجتزنا بوادى حمتها، وقد متع النهار، وتأرجت الأزهار، فشاهدنا به معالم الأعلام، وحيينا دار حمدة بالسلام » . (٣)

ونستطيع أن نقول إن هذه الرسالة قد بنيت على الفواصل والأسجاع، كما استعمل ابن الخطيب فى رسالته ضرباً آخر من السجع يلى الأول فى الجودة وهو ما طالت فقرته الثانية ندلل على ذلك بقوله فى وصف مدينة بسطة الأندلسية : « وما بسطة محل خصيب، وبلدة لها من اسمها نصيب، بحر الطعام، وينبوع العيون المتعددة بتعدد أيام العام . ومعدن ما زين للناس حبه من

(١) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٢٨ .
(٢) سورة الأعراف الآية ٢٠١ .
(٣) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٢٨ .

الحرث والأنعام . يا لها من عقيلة، صفحتها صقيلة، وخريدة، محاسنها فريدة وعشيقة نزعاتها رشيقة » . (١)

كما استعمل ابن الخطيب فى رسالته ضرباً آخر من السجع الذى يطلق عليه البلاغيون (السجع المتوازي) وهو ما تتفق فيه الفقرتان أو الفاصلتان فى الوزن والتقفية وفيه من الإيقاع والتحسين اللفظى ما لا يخفى أثره وقد ورد من هذا السجع المتوازى فى نص رسالته قوله : « ثم بدلنا ذلك الوادى بالعراء، واستقبلنا أرضاً شبيهة بالصحراء ملاعب للريح، ومنابت للسدر، والشيح، سحبت بها عين السحاب فضول الذيل، وطفف الغمام فى الليل، وغار النور، وفار التنور، وفاضت السماء، والتقى الماء، فالركائب تسبح سبح الأساطيل، والأرجل تزهق زهوق الأباطيل » . (٢)

ولعل من الواضح هنا أن أسجاع ابن الخطيب على اختلاف ألوانها غير المتكلفة، لم تجن على المعانى التى أراد بها ابن الخطيب إبلاغها، ولم تجن على الأفكار التى أراد إيصالها إلى المتلقى كما لم تقف حائلاً بينه وبين المتلقى، فما جاء من أسجاعه وفواصله فى رسالته لم يظلم النص الأدبى، بل زادته التحاسين السجعية اللفظية – لتمكن لسان الدين بن الخطيب من اللغة والبيان – جلاء وقوة وتأثيراً، على نحو ما مر بنا من شواهد، وقد شهد ابن خلدون لابن الخطيب بالقدرة الفائقة فى أسجاعه البليغة، وأومأ إلى عجزه عن مجاراته فى ذلك حيث قال معتذراً عن إجابته عن سجعه بالسجع قال : «فأجبته عن هذه المخاطبات، وتفاديت من السجع خشية القصور عن مساجلته، فلم يكن شأوه يلحق » . (٣)

ومن الخصائص الفنية لأسلوب لسان الدين بن الخطيب البراعة فى استخدام الجناس وقد عنى بهذا المحسِّن فوشّى به نصه بتكلف ظاهر جارى فيه أدباء عصره الذين أغربوا بصناعته من ذلك قوله : « وركب قاضيها ابن أبى خالد، وقد شهرته النزعة الحجازية، وليس من حسن الحجى زيه » . (٤)

---

(١) المصدر نفسه صـ٣١ .

(٢) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٩ .

(٣) التعريف ابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً عبد الرحمن ابن خلدون صـ١٣٠ .

(٤) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٦ .

ومن ذلك الجناس المتكلف قوله في وصف مصاعب الطريق : « أوعار لا تتخلص منها الأوعال، ولا تغنى السنابك فيها ولا النعال . قطعنا بياض اليوم فى تسنم جبالها، والتخبط فى حبالها، نهوى من شاهق إلى وهد، ونخوض كل مشقة وجهد » . (١)

ومن ذلك الجناس المتكلف أيضاً قوله : « فرفعوا فوق الركاب المولوى على عمد الساج، مظله من الديباج، كانت على قمر العلياء غمامه، وعلى زهر المجد كمامه » . (٢)

ومن السمات الفنية أيضا استخدامه فى نثره لزوم ما لا يلزم ويسمى أيضاً (الالتزام) و (الإعنات) وهو ضرب من التحاسين اللفظية التى وجدت فى النصوص البلاغية القديمة، ولكنها جاءت بإسماح، ثم تكلف لها المتأخرون فأعنتوا قرائحهم فى اصطيادها، وتوشية كلامهم بها، قال الدكتور بدوى طبانة فى تعريف هذا المصطلح : « ومعناه فى الاصطلاح أن يلتزم الناثر فى نثره أو الناظم فى نظمه قبل حرف الروى أو ما فى معناه من الفاصلة ما ليس بلازم فى السجع، مثل التزام حرف أو حركة يحصل السجع بدونه » . (٣)

وهذا الضرب من الالتزام بحرف، أو لزوم ما لا يلزم كثير فى رسالته وله أثر فى التحسين اللفظى، والإيقاع النغمى، ويظهر ذلك بوضوح فى قوله عند رحيل الركب السلطانى من مدينة المرية « وانصرفنا وعروشها تتعلق بأذيالنا ومخاضات واديها تعترض صدور رجالنا، ورياحها تدافعنا المسير ومعالمها تقنع من إلمامنا ولو باليسير . واستقبلنا وادي بجانه وما أدراك ما هو، النهر السيال، والغصن المياد الميال، والأفياء والظلال . والمسك ما فُتّ فى جنباته، والسندس ما حاكته يد جناته، نعمة واسعة ومساجده جامعة، أزرت بالغوطتين زياتينه

(١) المصدر نفسه صـ٤٠، ٤١ .
(٢) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٤٤ .
(٣) معجم البلاغة العربية بدوى طبانة ج٢ صـ٧٩٣ .

وأعنابه، وسخرت بشعب بوان شعائبه، بحيث لا تبدو للشمس آيات ولا تأتى للحرباء حيات » . (١)

ولعل من الملاحظ أن رسالته حافلة بهذا اللون من الالتزام والإعنات .

المحسنات المعنوية :

ومن الخصائص الفنية لأسلوب لسان الدين ابن الخطيب براعته فى استخدام المحسنات المعنوية ومنها الطباق، فقد استعمل هذا الأسلوب البديعي فى دقة ولكن فى غير توسع وافتعال، بل فى المقامات التى تطلبت استخدام هذا اللون والإثراء به ومن أمثلة ذلك قوله فى المطابقة بين فعلين مضارعين ضمن وصف وادى فردس : « بلدة أنيقة الساحة، رحبة المساحة، نهرها مطرد، وطائرها غرد، تبكى السحاب فيضحك نورها ويدندن النسيم فترقص حورها».(٢)

كما استخدم ابن الخطيب طباق الإيجاب . ومن المعلوم أن طباق الإيجاب هو ما لم يكن أحد طرفيه مشتملاً على أداة النفى من ذلك قوله : « فسئمنا ذلك العارض الهطال، وسهرنا الليل وقد طال، وما راعنا والصبح قد نم من خلف الحجاب، وقضيته قد انتقلت من السلب إلى الإيجاب » . (٣)

ولعل من مقياس الجودة فى الطباق عند البلاغيين أن يكون الجمع فيه بين الشئ وضده(٤) فى جلاء يدرك من الوهلة الأولى، والمتأمل فى نص رحلة ابن الخطيب واستعمالاته لمجاورة الأضداد يتأكد لديه بيسر أخذه بهذا المذهب البلاغى إذ جاءت جل مطابقاته على هذا النحو الظاهر ويظهر ذلك بوضوح فى قوله : « مولانا الهمام الأعلى، الذى تروى مفاخره وتتلى، أبى سعيد حفظ الله منه

(١) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٤٧ .

(٢) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٢٩، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٥٠ .

(٣) المصدر نفسه صـ٣٨ .

(٤) جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع السيد أحمد الهاشمى دار ابن خلدون صـ٢٩١ .

على الأيام بحر الندى، وبدا المنتدى، وسابق الفخر البعيد المدى، وشمله برواق عصمته كلما راح واغتدى » . (١)

ومما جاء فى سياق رسالته من بلاغة الطباق الحاصلة فى الجمع بين الشئ وضده قوله أيضاً : « ومن له بالحضرة حرسها الله شوق حثيث، وهوى قديم وحديث » . (٢)

ومن ذلك أيضاً قوله : « المشهد الجامع بين الذّرة والفيل، حشر أهلها بين دان ونازح » . (٣)

ومن ذلك أيضاً قوله : « واستقبلنا الوادى نجعله دليل تلك الطريق ونتبعه فى السعة والضيق » . (٤)

ومن الخصائص الفنية أيضاً لأسلوب لسان الدين استخدامه أسلوب التكرار ومن الملاحظ فى سياق النص أنه التجأ إلى تكرار اللفظ ولم يستخدم أسلوب التكرير (٥) الذى يقوم على إعادة الجمل .

والتكرار – كما عرف بلاغياً – « هو أن يكرر المتكلم اللفظة الواحدة باللفظ والمعنى، والمراد بذلك تأكيد الوصف أو المدح أو الذم أو التهويل أو الوعيد، أو الإنكار أو التوبيخ أو الاستبعاد، أو أى غرض من الأغراض » . (٦)

ومن شواهد ما جاء التكرار فيه للتهويل، ما عمد إليه ابن الخطيب فى رسالته عند حديثه عن بعض المدن المهمة التى زارها، وعمد فى وصفها فى سياق المبالغة والاهتمام قوله فى مدينة بسطة : « بسطة – حرسها الله – وما

(١) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٢٦ .
(٢) المصدر نفسه صـ٢٧ .
(٣) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٦ .
(٤) المصدر نفسه صـ٤٨ .
(٥) معجم البلاغة العربية بدوى طبانة مادة (كرر) .
(٦) المصدر نفسه مادة (كرر) .

بسطة محل خصيب، وبلدة لها من اسمها نصيب، بحر الطعام، وينبوع العيون المتعدد بتعدد أيام العام » . (١)

ومن ذلك التكرار أيضاً ما قاله فى حديثه عن وادى بجانه من مدن الأندلس : « واستقبلنا وادى بجانه وما أدراك ما هو، النهر السيال، والغصن المياد الميال، والأفياء والظلال » . (٢)

ومن الخصائص الفنية أيضاً استخدامه لما يعرف لدى النقاد المحدثين بالاستدعاء ، ومصطلح (الاستدعاء) مصطلح نقدى حديث، يعنى به النقاد المعاصرون ما يعنيه النقاد القدامى بمصطلح (التلميح) والمراد به أن يثرى الأدباء المبدعون نصوصهم من حيث الشكل بجلب أسماء الأعلام والبلدان والمواضع والرموز ذات الأبعاد الفكرية والمعرفية، والشحنات الشعورية والعاطفية، بما يدعم المعانى، ويزيدها رواء ورونقاً، حيث يقوم اللفظ الوجيز مقام التعابير المطولة، وهذا الذى ذكرناه هو نفس ما يدل عليه (التلميح) فى اصطلاح البلاغيين، فقد عرفوه بقولهم : « هو أن يشير الناظم فى بيت أو قرينة سجع إلى قصة معلومة أو نكتة مشهورة، أو بيت شعر حفظ لتواتره أو إلى مثل سائر يجريه فى كلامه على جهة التمثيل، وأحسنه وأبلغه ما حصلت به زيادة فى المعنى المقصود » . (٣)

ومن الملاحظ أن ابن الخطيب جرى على هذا السنن المعهود لدى كتاب عصره وما سبقه فى المشرق والغرب الإسلامى، فوظف الاستدعاء أو التلميح توظيفاً حسناً زاد به فى توضيح المعنى المراد فى فنون نثره الأدبى ومن ذلك نذكر من استدعاء الأعلام قوله : « فلما شاب مفرق الليل، وشهرت الآفاق من بزتها العباسية(٤) فضول الذيل، بكرنا نغتنم أيام التشريق » . (٥)

---

(١) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣١ .

(٢) المصدر نفسه صـ٤٧ .

(٣) معجم البلاغة العربية بدوى طبانة ج٢ صـ٨١٦ .

(٤) يقصد السواد شعار العباسيين .

(٥) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣١ .

فقد استدعى البزة العباسية السوداء لليل الذى آذن بالصباح . ومن ذلك الاستدعاء أيضاً قوله فى وصف المعاهد التى رآها فى مدينة المرية : « وحيينا بها بهو خيران، وقصر ابن صمادح » . (١)

يقصد ببهو خيران الذى بناه خيران الصقلبى الخصى العامرى، رئيس الحزب الصقالبى فى أواخر أيام الخلافة الأموية بقرطبة، ويقصد بقصر ابن صمادح الذى بناه المعتصم بن صمادح الذى حكم المرية فى فترة ملوك الطوائف من عام (١٠٤١ – ١٠٩١م) (٢) ومن ذلك أيضاً قوله : « وتخلصنا من ذاك الكمد، شارفنا دار عبلة بالعليا فالسند » . (٣)

ومن استدعاء الأماكن قوله فى تصوير إقبال الناس على إكبار السلطان أبى الحجاج يوسف : « مثلوا فسلموا، وطافوا بركن مقامه واستلموا، وجَهرُوا بالتلبية ونظروا من وجهه الجميل » . (٤)

ولعل من مشمولات تلك الربوع الفيحاء التى تحتل فى نفوس المسلمين مكاناً عزيزاً الركن اليمانى والكعبة المشرفة والطواف حولها والتلبية التى استدعاها ابن الخطيب فى أثناء تصويره لإقبال الناس على إكبار سلطانه .

ومن ذلك أيضاً قوله فى أثناء حديثه عن وادى بجانه ممتدحاً خيراته وظلاله ورياضه وأفياءه : « أزرت بالغوطتين زياتينه وأعنابه، وسحرت بشعب بوان شعائبه » . (٥)

ومن استدعاء البلدان ذات الدلالات فى التاريخ الحضارى والإنسانى ليدل بها على مكان الشهرة، ويلمح بها إلى مزايا ما عرفت به من ذلك قوله فى معرض الفخر بالحضرة الغرناطية التى تفوقت على بلاد دمشق الشام وبغداد

(١) المصدر نفسه صـ٤٥ .
(٢) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٤٥ .
(٣) المصدر نفسه صـ٤٨ .
(٤) المصدر نفسه صـ٤٤ .
(٥) المصدر نفسه صـ٤٧ .

العراق على الرغم مما لها من شهرة حضارية ومزايا عرفت بها « وأثبت فخر الحضرة بالإجماع والاصفاق، على دمشق الشام وبغداد العراق » . (١)

ومن الخصائص الفنية لأسلوب لسان الدين بن الخطيب . التنويع بين الشعر والنثر حيث ضمن رسالته أشْعاراً من نظمه وأشْعاراً من نظم غيره، وذلك حسب ما يقتضيه حال المخاطب، وما يلائم سياق الرسالة وقد أبدع ابن الخطيب فى ذلك حتى لو نثر شعره لكان قريباً من نثره، ولو نظم نثره لكان شبيهاً من شعره، وكان يفعل ذلك ليدلل على ما يسوقه من معان، أو ليؤكّدِ على ما يبسطه من أفكار، ولم يحظ بهذه الميزة إلا الكتاب المبرزون والمبدعون، كما يشير إلى ذلك الكلاعى بقوله : « كان المجيد (منهم) كثيراً ما يضمن رسائله أشعاره وأشعار غيره » . (٢)

فقد أحس ابن الخطيب بذوقه الأدبى وحسه النقدى ما لاستدعاء الأشعار والمنظومات (قصائد ومقطعات) من توشية وتأثير وجاذبية فى سياقات فنون النثر الأدبى التى عالجها فحلى أنساقها بالكثير من تلك الأشعار والمنظومات، وزين بداياتها وأوساطها وأحياناً خواتمها بالأبيات الجياد، المتسقة مع المعانى المطروقة، فأعطى بذلك ككبار الكتاب والبلغاء البهجة والرونق لنثره الأدبى .

ولعل من نافلة القول أن نذكّر بمواهبه وثقافته الشعرية التى كانت موضع دراسات متعددة، فقد كان شاعراً ووشاحاً وزجالاً(٣)، كما تدل استشهاداته الوافية

---

(١) المصدر نفسه صـ٥٢ .

(٢) إحكام صنعة الكلام أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلى الأندلسى (من أعلام القرن السادس الهجرى) – تحقيق : محمد رضوان الداية – عالم الكتب – بيروت ١٩٨٥م – صـ٧١ .

(٣) مجلة البينة سنة ١٩٦٢ – شعر لسان الدين ابن الخطيب محمد بلبشير، وكذا شعر لسان الدين ابن الخطيب وخصائصه الفنية، وهاب سعيد الأمين، وكذا مجلة العربى العدد ١٠٣ السنة ١٩٦٨م ابن الخطيب إمام الزجل محمد عبدالله عنان، وكذا ديوان الصيب والجهام والماضى والكهام – دراسة وتحقيق : محمد الشريف قاهر، وكذا ديوان لسان الدين ابن الخطيب السلمانى صنعه – وحققه وقدم له : محمد مفتاح .

فى منثوره أنه كان ذا ثقافة شعرية واسعة ، ترفده ذاكرة قوية تحفظ الكثير والكثير لشعراء من مختلف العصور.

وهكذا تضافر إبداعه الشعرى مع رصيده الواسع من محفوظه فى استدعاء الأبيات والمقطعات بل القصائد وقد أكثر ابن الخطيب من الشواهد الشعرية فى رسالته التى بين أيدينا ففى هذه الرحلة الأندلسية – على قصر نصها – ساق تسعة وخمسين بيتاً جاءت موافقة لسياقاتها . كما حفلت بمنظوماته حفلت أيضاً بالأبيات الرقيقة والخشنة من شعر غيره بحسب السياقات من شوق وحنين وهجاء، وقد جلب فى ذلك من مخزون حفظه شواهد من الشعر الجاهلي ومن الشعر الإسلامي والعباسي والأندلسي ... ، ولكن المتأمل فيها يقف على أنه كان يستمد من شعر زهير بن أبى سلمى، والقاضى عياض، وحصن الحجارى، وأبى القاسم بن هانى وغيرهم، وقد اقتضى ذلك الاستدعاء من شعر الشعراء الجادين.

والحقيقة الظاهرة أن ابن الخطيب فيما استدعاه من قصائد ومقطّعات وأبيات كان يراعى المناسبة بين الشاهد والسياق مراعاة كاملة سواء فيما نظمه، أو فيما نظمه غيره ومن شواهد ذلك فى رسالته أنه فى البداية حينما أراد أن يتحدث عن بلدته غرناطة وحبه لها والتعلق بربوعها ومجاليها وقد عبر عن هذا المعنى تعبيراً صريحاً بقوله : « ومن له بالحضرة حرسها الله شوق حثيث، وهوى قديم وحديث، يكثر الالتفات، ويتذكر لما فات ويبوح بشجنه، وينشد مشيراً إلى سكنه »[1]، ثم أورد على ذلك شاهداً بيتين من الشعر من نظمه :

يَـومَ أَزْمَعْـتُ عَنْـكَ طـيَّ الْبِعَـادِ وَعَــدَتنِى عَــن الــوداع الْعَــوادِى
قـال صَـحْبى وقـد أطلـت التَفِاتي أى شـيء تَرَكْـتَ قُلْـتُ فُـؤادِى[2]

ثم عاد بعد ذلك فصور استعار هذا الشوق والحنين بين جوانحه، وما كان يعانيه من الحب والهيام والجوى بالديار حيث قال : « وربما غلبته لواعج أشواقه،

(١) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٢٧، وكذا ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب – تحقيق : محمد عبدالله عنان ج٢ صـ٢٤٨ .

(٢) المصدر نفسه صـ٢٧، وكذا ديوان الصيب والجهام والمضاى والكهام – دراسة وتحقيق : محمد الشريف قاهر صـ٤٤٧ .

وشبت زافراته عن أطواقه، فعبر عن وجده، وخاطب الحضرة معرباً عن حسن عهده »[١]، ثم أورد على ذلك شاهداً خمسة أبيات من الشعر من أشعار غيره، وقد راعى المناسبة بين الشاهد والسياق مراعاة كاملة .

ألا عم صباحاً أيها الربع وأسلم ... ودم فى جوار الله غير مذمم
ولا عدمت أرجاؤك النور إنها ... مطالع أقماري وآفاق أنجمي
إذا نسى الناس العهود وأغفلوا ... فعهدك فى قلبى وذكرك فى فمي
وإنى وإن أزمعت عنك لطية ... وقوضت رحلى عنك دون تلوّم
فقلبى لك البيت العتيق مقامه ... وشوقى إحرامى ودمعى زمزم[٢]

فقد أفصحت الأبيات عما كان مستكناً فى طواياه من حب وشوق وعهد وهو يستعد للقيام بهذه الرحلة مع السلطان إلى بلدان أندلسية غير بعيدة .

ونراه أيضاً حينما أراد أن يتحدث عن مظاهر الاستقبال للركب السلطانى، وعن روائع المظاهر فى الطبيعة التى اكتست بها المدن الأندلسية، ومنها وادى (آش) نجده يقول : « واستقبلنا البلدة – حرسها الله – فى تبريز سلب الأعياد احتفالها، وغصبها حسنها، وجمالها نادى بأهل المدينة، موعدكم يوم الزينة، فسمحت الحجال برباتها، والقلوب بحباتها، والمقاصر بحورها، والمنازل ببدورها . فرأينا تزاحم الكواكب بالمناكب وتدافع البدور بالصدور بيضاء كأسراب الحمائم، متلفعات بروضهن تلفع الأزهار بالكمائم، حتى إذا قضى القوم من سلامهم على إمامهم فرضاً، واستوفينا أعيانهم تمييزاً وعرضاً، خيمنا ببعض رباها المطلة، وسرحنا العيون فى تلك العمالة المغلة، والزروع المستغلة، فحباها الله من بلدة أنيقة الساحة، رحبة المساحة، نهرها مطرد، وطائرها غرد، تبكى السحاب فيضحك نورها ويدندن النسيم فترقص حورها».[٣]

ثم أورد على ذلك شاهداً بيتين من الشعر من أشعار غيره وقد راعى المناسبة بين الشاهد والمعنى الذي سيق فيه مراعاة كاملة حيث قال :

---

(١) المصدر نفسه صـ٢٧ .
(٢) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٢٧ .
(٣) المصدر نفسه صـ٢٨، ٢٩ .

بلـد أعارتـه الحمامـة طوقهـا وكسـاه حسـن جناحـه الطـاووس
فكأنمـا الأنهـار فيـه مدامـة وكـأن سـاحات الـديار كـؤوس[1]

ويا له من تصوير بديع لروعة المكان ، وجمال بقاعه وكأن ألوان مرائيه طوق الحمائم أو أجنحة الطواويس ، وكأن مياه أنهاره خمر شديدة الصفاء تنساب في ساحات دياره التي تبدو وكأنها الكئوس التي لا ترى إلا مترعة فياضة !!.

ومن ذلك أيضاً حينما وصف ارتياح الركب السلطاني لمدينة المرية ، إذ لبثوا فيها خمسة أيام استعمل فى هذا المقام رمزاً أسطورياً كتميمة ومعوذة لها، إظهاراً لهذه المحبة، حيث قال : « وكان الرحيل عن تلك المدينة لا عن ملال، ولا عن ذم خلال، ولكن مقام بلغ أمدا، ورحلة انتهت إلى مدى»[2]، ثم أورد على ذلك شاهداً بيتا من الشعر هو :

أقمنـا بهـا يومـاً ويومـاً ثالثـاً ويـوم لـه يـوم الترحـل خـامس

فيالها من خمسة علقها الدهر تميمة على نحره، وأثبتها معوذة فى قرآن فخره » .[3]

ومن ذلك أيضاً حينما أشار عند عودة الركب ونزوله بوادى فردس الذى كان أول المدن التى مر بها الركب عند الخروج من غرناطة، إلى تلاحق وفود التهانى، وسفور وجوه الأماني نراه يقول : « فنزلنا بوادى فردس، منازلنا المعتادة، وقلنا رجع الحديث إلى قتادة، وبها تلاحقت وفود التهاني، وسفرت وجوه الأماني نزلنا منه بالمروج فتفتحت بها أزهار القباب البيض فى بساطها العريض، وخطرت ببالي مقطوعة فى مخاطبة المولى أنجح الله عمله ويسر من فضله أمله، أثبتها على حكم الاستعجال . وأوصفت على بيوتها خيل الارتجال » . ثم أورد على ذلك شاهداً عشرة أبيات من الشعر من نظمه حيث قال :-

إذا سرت سار النور حيث تعوج كأنـك بـدر والـبلاد بـروج

(١) المصدر نفسه صـ٢٩ .
(٢) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٤٦ .
(٣) المصدر نفسه صـ٤٦ .

لك الله من بدر على أفق العلا ... يلـوح وبحـر بـالنوال يمـوج
تفقـدت أحـوال الثغـور بنيـة ... لهـا نحـو أبـواب القبـول عـروج
وسكنتها بالقرب منك ولم تزل ... تهـيم هـوى مـن قبلـه وتهـيج
مررت على وعد من الغيث بينها ... فمنظرهـا بعـد العبـوس بهـيج
فكـم قلعـة كلـل النـور تاجهـا ... ورف عليهـا للنبـات نسـيج
ولا نجـد إلا روضـة وحديقـة ... ولا غـور إلا جـدول وخلـيج
أيوسف دم للدين تحمى ذماره ... إذا كـان للخطـب الأبـيّ ولـوج
بفتية صدق إن دجا ليلُ حادث ... فهـم سُـرُج آفـاقهن سـروج
بقيت قرير العين ماذرّ شارق ... وما طاف بالبيت العتيق حجيج[1]

ففى هذه الأبيات امتدح لسان الدين ابن الخطيب أبا الحجاج يوسف وهنأه بسلامة العودة وهذا الشعر يتناسب مع المعنى الذى سيق فيه، فهو يصفه بأنه النور حيث حل وأنه البدر والبلاد الأخرى نجوم تدور فى فلكه، فقد رحل عن غرناطة لتفقد أحوال سائر البقاع ، وعندما رحل عنها صار أفقها عبوسا ولما عاد إليها أصبح منظرها مبهجا فأنت أيها السلطان حامى ذمار الدين، ثم دعا له بأن يظل قرير العين فى جميع الأوقات .

وإن نظرة سريعة فى أنساق رحلته تؤكد للناظر سعة محفوظ ابن الخطيب من أشعار القدامى والمحدثين في الأدب المشرقى والأدب المغربى والأندلسى، كما تؤكد براعته فى استخدام هذا الرصيد فى آثاره، وقدرته على الإفادة من استدعاء الأشعار فى تقويه أسلوبه ومحاولة لجلب انتباه القارئ ودفع السأم والملل عنه، وهناك ميزة أخرى وهى قدرة الشعر على تكثيف العاطفة وتركيزها، فهو خلاصة الانفعال، وتعبير عن الإحساس الصادق الذى يتلاشى فى بعض جوانب النثر .[2]

(١) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٥٠، ٥١ وكذا ديوان الصيب والجهام والماضى والكهام دراسة وتحقيق محمد الشريف قاهر صـ٣٥٤ .

(٢) أدب الرسائل فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى فايز عبد النبى فلاح القيسى – دار البشير للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م – صـ٣٢٦، ٣٢٧ .

ولم يقف الأمر عند التنويع بين الشعر والنثر، بل عمد ابن الخطيب إلى حل معقود الشعر وإدخاله فى منثور عباراته ببراعة وإتقان وبصياغة مقاربة للمنظوم حيث يقول : « وسرنا ودر الحصى بساط الأرجل ركابنا، ودنانير أبى الطيب تنثر فوق أثوابنا » . (١)

وهذا محلول من قول أبى الطيب المتنبى من قصيدته التى مدح بها سيف الدولة الحمدانى، حيث يقول :-

نثــرتهم فــوق الأحيــدب كلــه كما نثرت فوق العروس الدراهم(٢)

ولعل من الواضح أن ابن الخطيب كان قطب الشعر والنثر فى عصره، وكان محور الحركة الفكرية الأندلسية كلها فى أواسط القرن الثامن الهجري، تجتمع إليه، وتلتف حوله .

۞۞۞

(١) مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب أحمد مختار العبادى صـ٣٥ .

(٢) شرح ديوان المتنبى وضعه عبد الرحمن البرقوقى – الناشر دار الكتاب العربى – بيروت – لبنان ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م – المجلد الثانى ج٣ صـ١٠٥ .

الخـــاتمة

أستطيع بعد أن طوفت حول رسالة خطرة الطيف والتعريف بموضوعها وسماتها الأسلوبية أن أسجل بعض الاستنتاجات والملاحظات ومن أهمها :

- تُعد الرسالة نموذجا لكتابات ابن الخطيب الوصفية وعلى الرغم من اختلاف بعض الباحثين والمؤرخين حول تصنيفها ، إذ عدها بعض من ترجموا للسان الدين مقامة ، وعدها آخرون وثيقة جغرافية فإن الواضح أنها رسالة أدبية وصفية بليغة سجل فيها أديبنا الموهوب خلاصة مشاهداته في تلك الرحلة التفقدية مع السلطان أبي الحجاج يوسف النصري .
- تكتسب الرسالة أهمية تاريخية بحسبانها تسجل كثيرا من مظاهر الحياة العامة ومعالم الحضارة والعمران في الحقبة التي كتبت فيها وهي القرن الثامن الهجري في مملكة غرناطة بالأندلس .
- تعرض الرسالة . على الرغم من قصرها نسبيا . جانبا من براعات لسان الدين ابن الخطيب في أدب الرحلة الذي تناوله بأسلوب فني مشوق .
- تنتمي الرسالة إلى مرحلة مبكرة في حياة لسان الدين وهي مرحلة الشباب واقتبال العمر وقت أن كان كاتبا في ديوان الإنشاء ، ومع ذلك فهي تشكف عن نبوغه المبكر ، وتمكنه من أدوات التعبير الأدبي المؤثر ، وكذا عن حماسه الشديد للسلطان ورغبته القوية في خدمته والولاء له .
- مع أن الرسالة تنحو منحى وصفيا تسجيليا إلا أن ابن الخطيب مزجها برؤاه الخاصة ومشاعره الذاتية فذكر انطباعاته عن كثير مما رآه وحكى وسرد وناقش ومازح بعض من لقيهم ، وسجل ذلك كله ببراعة واقتدار دون أن يطغى جانب من ذلك على تسجيله لأدق التفصيلات والمشاهدات على امتداد الرحلة كلها ، وهذا أكسب الرحلة طابعها الأدبي ، وصبغتها التعبيرية الفنية .
- جمع لسان الدين ابن الخطيب في رسالته بين وصف مشاهد الطبيعة والعمران وتسجيل ظواهر المجتمع وأحوال الناس وطبائعهم وما توحي به

أحوالهم وما تتحرك به نوازعهم ، وما أحاطوا به سلطانهم من مظاهر الحب والتأييد ، كما صور اختلاف البيئات وأحوال الناس وعوائدهم وأحوالهم في كل بقعة من البقاع التي مر بها الركب السلطاني .

المصادر والمراجع

- **القرآن الكريم .**
- الإحاطة فى أخبار غرناطة لذى الوزارتين لسان الدين ابن الخطيب – حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه : محمد عبدالله عنان – الناشر مكتبة الخانجى – القاهرة – الطبعة الرابعة ١٤٢١هـ – ٢٠٠١ م .
- إحكام صنعة الكلام أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلى الأندلسى (من أعلام القرن السادس الهجرى) – تحقيق : محمد رضوان الداية – عالم الكتب – بيروت ١٩٨٥م .
- أدب الرحلة عند العرب حسنى محمود حسين – مجلة الهلال – القاهرة – عدد يوليه ١٩٧٥م .
- أدب الرحلات رسالة اعتبار الناسك فى ذكر الآثار الكريمة والمناسك المعروف بـ(رحلة ابن جبير) لأبى الحسن محمد بن أحمد جبير – طبعة جديدة منقحة بأشراف لجنة تحقيق التراث منشورات دار مكتبة الهلال بيروت – لبنان ١٩٨١م .
- أدب الرسائل فى الأندلس فى القرن الخامس الهجرى فايز عبد النبى فلاح القيسى – دار البشير للنشر والتوزيع – الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .
- الأدب الأندلسى التطور والتجديد محمد عبد المنعم خفاجى – دار الجيل – بيروت – الطبعة الأولى ١٤١٢هـ – ١٩٩٢م .
- الأدب العربى فى الأندلس عبد العزيز عتيق – دار النهضة العربية للطباعة والنشر – بيروت – الطبعة الثانية ١٣٩٦هـ – ١٩٧٦م .
- أدبيات أندلسية دراسة تاريخية أدبية نصية تحليلية عبدالله حسين على سليمان مكتبة الإيمان بالمنصورة ١٤١٥هـ – ١٩٩٤م .
- أزهار الرياض فى أخبار عياض – تحقيق الأستاذ : مصطفى السقا، إبراهيم الأبيارى، عبد الحفيظ شلبى – مطبعة لجنة التأليف والترجمة – القاهرة ١٩٣٩ – ١٩٤٢م .

- الاستقصا لأخبار المغرب الأقصى أبى العباس أحمد السلاوى – تحقيق ولدى المؤلف الأستاذ : جعفر، ومحمد – مطبعة دار الكتاب بالدار البيضاء ١٩٥٤ – ١٩٥٦ م .
- الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام عباس إبراهيم المراكشى .
- الأعلام قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين خير الدين الزركلى – مؤسسة ثقافية للتأليف والترجمة والنشر – دار العلم للملايين – الطبعة السادسة عشرة – كانون الثانى – يناير ٢٠٠٥م .
- إميليو جارثيا جوميث الشعر الأندلسى بحث فى تطوره وخصائصه ترجمة عن الإسبانية حسين مؤنس – دار الرشاد الطبعة الثانية ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٥م .
- الأندلس دراسة تاريخية حضارية محمد كمال شبانة دار العلم العربى – الطبعة الأولى المحرم ١٤٢٩هـ – يناير ٢٠٠٨م .
- بحوث مشرقية ومغربية فى التاريخ والحضارة الإسلامية سحر السيد عبد العزيز – الناشر مؤسسة شباب الجامعة ١٩٧٧م .
- تاريخ ابن خلدون المسمى بكتاب العبر، وديوان المبتدأ والخبر، فى أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوى السلطان الأكبر عبد الرحمن بن محمد بن خلدون الحضرمى المغربى – مؤسسة جمال للطباعة والنشر – بيروت – لبنان ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩ م .
- تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام فى من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام لذى الوزارتين لسان الدين بن الخطيب السلمانى – تحقيق وتعليق : إلفى بروفنسال .
- تاريخ الأدب العربى أحمد حسن الزيات .
- تاريخ الأدب العربى عصر الدول والإمارات الأندلسى – شوقى ضيف – دار المعارف – الطبعة الثانية .
- تاريخ الأدب العربى عمر فروخ بيروت – دار العلم للملايين – الطبعة الثانية ١٩٩٢م .

- تاريخ الجغرافية والجغرافيين فى الأندلس حسين مؤنس – الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ – ١٩٨٦م .
- تاريخ العرب فيلب متى – الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٨م .
- تاريخ قضاة الأندلس أبى الحسين النباهى – القاهرة .
- تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس السيد عبد العزيز سالم – مؤسسة شباب الجامعة للطباعة والنشر ١٩٨٤م .
- تراجم إسلامية شرقية أندلسية محمد عبدالله عنان – الطبعة الثانية – الناشر مكتبة الخانجى– القاهرة .
- تطور الأساليب النثرية فى الأدب العربى أنيس المقدسى – دار العلم للملايين – الطبعة التاسعة نيسان أبريل ١٩٩٨م .
- التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً عبد الرحمن بن خلدون – دار الكتاب اللبنانى للطباعة والنشر ١٩٧٩م .
- الجامع فى تاريخ الأدب العربى القديم – دار الجيل بيروت– لبنان – الطبعة الأولى ١٩٨٦م .
- الجغرافيون العرب مصطفى الشهابى أقرأ ٢٣٠ – دار المعارف بمصر .
- جواهر البلاغة فى المعانى والبيان والبديع السيد أحمد الهاشمى – دار ابن خلدون .
- دائرة معارف الشعب – مطابع الشعب ١٩٥٩م .
- دراسات فى الأدب الأندلسى أحمد عبد الغفار عبيد، عبد الجواد محمد المحص – مكتبة بسملة ١٤٢٨هـ – ٢٠٠٧م .
- الدرر الكامنة فى أعيان المائة الثامنة شهاب الدين أحمد بن حجر العسقلانى – حققه وقدم له ووضع فهارسه : محمد سيد جاد الحق – الناشر أم القرى للطبعة والنشر .
- دليل الناقد الأدبى نبيل راغب – دار المعارف القاهرة ٢٠٠٠م .
- دولة الإسلام فى الأندلس الآثار الأندلسية الباقية فى إسبانيا والبرتغال محمد عبدالله عنان – الهيئة المصرية العامة للكتاب .

- ديوان الصيب والجهام والماضى والكهام – دراسة وتحقيق : محمد الشريف قاهر الشركة الوطنية للنشر والتوزيع – الجزائر – الطبعة الأولى ١٩٧٣م .
- ديوان لسان الدين ابن الخطيب – صنعه وحققه وقدم له : محمد مفتاح – دار الثقافة للنشر والتوزيع – الدار البيضاء – الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .
- رحلة ابن بطوطة المسماه تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار – دار الكتاب اللبنانى – مكتبة المدرسة .
- الرحلات شوقى ضيف دار المعارف الطبعة الثالثة .
- الرحلات فى الأدب العربى سيد نوفل مجلة الهلال – القاهرة – عدد يوليه ١٩٧٥م .
- الروض المعطار فى خبر الأقطار أبى عبدالله محمد بن عبد المنعم الحميرى – نشر إليفى بروفنسال ١٩٣٧م .
- روضة التعريف بالحب الشريف محمد الكتانى .
- الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون لأبى عبدالله غازى العثمانى – طبع فاس ١٣٣١ هـ .
- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب لسان الدين بن الخطيب – تحقيق : محمد عبدالله عنان – القاهرة – مكتبة الخانجى ١٤٠٠هـ – ١٩٨١م .
- سلطة المثقف بين الاقتراب والاغتراب قراءة فى سيرة لسان الدين بن الخطيب وتجربته السياسية محمد فاتح زغل – وزارة الثقافة الجمهورية العربية السورية – دمشق .
- شرح ديوان المتنبى وضعه عبد الرحمن البرقوقى – الناشر دار الكتاب العربى بيروت – لبنان ١٣٩٩هـ – ١٩٧٩م .
- شعر لسان لسان الدين ابن الخطيب وخصائصه الفنية وهاب سعيد الأمين .
- صبح الأعشى فى صناعة الإنشأ أبى العباس أحمد بن على القلقشندى – نسخة مصورة عن – الطبعة الأميرية – وزارة الثقافة والإرشاد القومى – المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر .

- ظهر الإسلام أحمد أمين – مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٢م .
- غرناطة وآثارها الفاتنة عبد الرحمن زكى – الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ١٩٧١م .
- الفن ومذاهبه فى النثر العربى شوقى ضيف – الطبعة التاسعة – دار المعارف .
- فى الأدب الأندلسى جودت الركابى – دار المعارف .
- فى الأدب الأندلسى محمد زكريا عنانى – الفتح للطباعة والنشر ٢٠٠٥م .
- فى الأدب العربى القديم عصوره واتجاهاته وتطوره ونماذج مدروسة منه – المجلد الثانى العصر العباسى والأندلسى محمد صالح الشنطى – دار الأندلس للنشر والتوزيع حائل – الطبعة الثانية مزيدة ومنقحة ١٤١٧هـ – ١٩٧٧م .
- قصص جوب الأقطار وكشفها محمد عوض إبراهيم بك – دار الفكر العربى .
- قصص الرحالة والمكتشفين أبو الحسن المسعودى عبد السلام العشرى – دار المعارف بمصر ١٩٦٤م .
- قصة الأدب فى الأندلس محمد عبد المنعم خفاجى – بيروت – مكتبة المعارف ١٩٦٢م .
- قلائد العقبان أبو النصر الفتح محمد بن خاقان – طبعة مصر ١٣٢٠هـ .
- لسان الدين ابن الخطيب حياته وتراثه الفكرى محمد عبدالله عنانى – مكتبة الخانجى القاهرة – الطبعة الأولى ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م .
- لسان الدين ابن الخطيب فى آثار الدارسين دراسة وبيلوجرافية حسن عبد الكريم الوراكلى – الرباط ١٩٩٠م .
- لسان الدين وكتاباته التاريخية أحمد مختار العبادى .
- لسان العرب لابن منظور – تحقيق : ياسر سليمان أبو شادى، مجدى فتحى السيد – المكتبة التوفيقية .

- اللمحة البدرية فى الدولة النصرانية لسان الدين بن الخطيب– تحقيق وتعليق : محمد زينهم – دار الثقافة للنشر – الطبعة الأولى ١٤٢٥هـ – ٢٠٠٤م .
- مجلة أكاديمية المملكة المغربية السنة ١٩٨٥م .
- مجلة البحث العلمى العدد ٢ – ١٩٦٤م .
- مجلة البينة – العدد ١٠٣ – السنة ١٩٦٢م .
- مجلة عالم الفكر – المجلد السادس عشر – العدد الثانى – يوليو، أغسطس، سبتمبر ١٩٨٥ .
- مجلة العربى – العدد ١٠٣– السنة ١٩٦٨م .
- مجلة الكاتب المصرى – العدد ٢٦ – مجلد ٧ – نوفمبر ١٩٤٧م .
- مجلة كلية الآداب بتطوان – جامعة سيدى محمد بن عبدالله – السنة الثانية – العدد الثانى – مطبعة النجاح الجديدة – الدار البيضاء .
- مجلة كلية الآداب – جامعة الإسكندرية – المجلد الثانى عشر١٩٥٨م .
- مجلة كلية الآداب – الرباط – العدد ٢ – السنة ١٩٧٧م .
- مشاهدات لسان الدين ابن الخطيب فى بلاد المغرب والأندلس (مجموعة من رسائله) – نشر وتحقيق : أحمد مختار العبادى – مطبعة جامعة الإسكندرية ١٩٥٨م .
- مظاهر الثقافة المغربية محمد بن شقرون الرباط – مطبعة الرسالة ١٩٧٠م .
- معجم البلدان من العصر الجاهلى حتى ٢٠٠٢م كامل سلمان الحبورى – المجلد الخامس كاتب محمد على جماز – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ – ٢٠٠٣م .
- معجم البلدان الشيخ الأمام شهاب الدين أبى عبدالله ياقوت بن عبدالله الحموى الرومى البغدادى – تحقيق : فريد عبد العزيز الجندى – دار الكتب العلمية – بيروت – لبنان – الطبعة الأولى ١٤٠١هـ – ١٩٩٠م .
- معجم البلاغة العربية بدوى طبانة .

- منوعات ابن الخطيب الحسن محمد السائح – الرباط – وزارة الأوقاف ١٣٩٨هـ – ١٩٨٧م .
- الموشحات الأندلسية محمد زكريا عنان – الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- نثير الجمان فيمن ضمن وإياهم الزمان أبو الوليد إسماعيل بن الأحمر محفوظ .
- نثير فرائد الجمان فى نظم فحول الزمان إسماعيل بن الأحمر – تحقيق: محمد رضوان الداية – لبنان – دار الثقافة ١٩٧٦م .
- نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب لسان الدين ابن الخطيب – تحقيق: أحمد مختار العبادى – دار الكاتب العربى للطباعة والنشر بالقاهرة .
- نفاضة الجراب فى علالة الاغتراب لسان الدين ابن الخطيب – تحقيق: السعدية فاغية – المغرب – المطبعة الجديدة ١٤٠٩هـ – ١٩٨٩م .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى – تحقيق : محمد عبد الحميد – بيروت – دار الكتاب .
- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب للشيخ أحمد بن محمد المقرى التلمسانى – حققه : إحسان عباس – دار صادر – بيروت ١٣٨٨هـ – ١٩٦٨م .
- الوسيط فى الأدب العربى وتاريخه الشيخ أحمد الإسكندري، والشيخ مصطفى عنانى بك – دار المعارف بمصر – الطبعة الخامسة عشرة .

فهرس

الموضـــــــــوع	الصفحة
مُقَدِّمَة	٦٣
التمهيد : التعريف بابن الخطيب	٦٥
نـبـذة عن أدب الرحلات عند العرب	٦٨

المبحث الأول

رسالة خطرة الطيف عرض وتوصيف	٧٢

المبحث الثاني

رسالة خطرة الطيف الخصائص الفنية	٩٦
اللغة والعبارة	٩٨
التصوير بالتشبيه	١٠٠
التصوير بالاستعارة	١٠١
المحسنات اللفظية	١٠٣
المحسنات المعنوية	١٠٧
الـخـاتمة	١١٧
المصادر والمراجع	١١٩
الفهرس	١٢٦